بيـت الطالبـات

طبعـة ثانيـة

فـوزيـة مهـــران



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

بيت الطالبات

فوزية مهران

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : **محمود الهندى**

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب


بيت الطالبات

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة ... فة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

مقدمة

منذ البداية وجدتنى أعبر عن نفسى بالكتابة.
أحيانا مجرد كلمة.. جملة.. عبارة صغيرة..

وعندما أستعيد قراءتها تحمل لى نفس المشاعر.. وتجدد الرؤية وتنبض بالدهشة والجو ورائحة اللحظات.

كل يوم أدرك شيئا جديدا فى الحياة... أنتبه إلى حدث صغير.. فرع شجرة جاف يمكن أن يجسد لى عالماً بأكمله.. صدفة صغيرة تبحر بى إلى منابع الأنهار والبحار.. شظية من حجر تبنى قلاعا وجسوراً وتقيم تاريخاً وأسلوباً من الحياة.

مشهد عابر يستوقفنى ويبكينى فى حين ترتفع من حولى ضحكات الصغار. وجدتنى مشغولة دائماً بالقصة خلف المشهد، أتصور «الحالة» وأتصل بالأسباب والتداعيات.

(إيقاعى كان مختلفا) ـ لذلك كان يجب أن أكتب لأتأمل وأعرف أكثر وأزداد شوقا ومحبة.

ـ الكتابة تعنى لدى حياة ـ

لى «كراستى الخاصة» أدون بها مشاعرى .. أحلامى.. رؤيتى للوقائع والأحداث.. مازالت حتى الآن أدون جملة... فكرة رئيسية لقصة أو مقال - وتعلمت كيف ألتقط صورا من الواقع والحياة.

- الكتابة قوة تحرر وإنطلاق - كان أبى هو شريان الوصل بيننا والمعرفة والحياة. يحمل لنا «خبرا ووردا» كما يقولون - يقدم «زاداً» يومياً من الصحف والمجلات.. والكتب والدوريات.

رف المكتبة يرتفع يوماً بعد يوم، والكتب تمثل أثمن ما نملك - وحتى الآن -

وتوهج الحلم فوق قبة الجامعة - العلم حرية وقوة ونور نسعى به للحقيقة ولنفع الناس. مساحة حرية أكبر للتفكير والمزيد من المعرفة. ونحن جيل ارتبطت لديه الثقافة بالسياسة.. كنا نحلم بالتغيير،... نحلم بحياة أفضل لإنسان مصر.

لم نعرف لنا تاريخاً منفصلاً.. جرى علينا كل ما يحدث فى الوطن.

وواكبت «الثورة» مرحلة التعليم الجامعى وتجسدت الأحلام وأحسسنا بأهمية العمل والنضال من أجل التغيير والتقدم والإصلاح.

فى الجامعة أقمت فى «بيت الطالبات» .. قصر جميل أهدته إحدى الأميرات لكلية الآداب. البيت أشبه بثكنة عسكرية راقية للفتيات. غمرنى شعور بالأمل والبهجة وأنا أصعد «السلم» من الحديقة إلى داخل الردهات الفسيحة والحجرات. شعرت حقا أنى أصنع مستقبلا فى الصعود والنزول على هذه السلالم. «أنضم إلى كتيبة العلم والجهاد.

كان أول بيت لى فى القاهرة العاصمة.. بيت يضم «خمسين فتاة» من حنايا البلاد.. من القرى البعيدة من الصعيد وريف مصر.

منذ اللحظة الأولى أحسست أنى أعيش تجربة مثيرة وعميقة.. إننا داخل لحظة التحول وإقامة بنيان حياة جديدة.

هذا البيت كالوطن. نعيش فى قلب العملية التاريخية.. فى بؤرة الحدث والتطور والصراع.

بيت جميل أقيم للتعليم.. للتقدم ومن أجل المستقبل ويقيم حياة النهضة والبطولة فيه للبنات، للمشاركة والعمل والبناء فى مجتمع جديد تماما. فى بيت الطالبات أحسست أنى حاضرة باستمرار لا تضيع على لحظة واحدة.. أحيا داخل بوتقة من التفاعل الحى فى قلب الوطن.. إننى أمام تجربة حية للكتابة والفن. مغامرة فنية ساحرة ونادرة.

داخل موقع فريد.. ساحة زاخرة بآيات الفن والرسوم المجسدة فى السقف والأعمدة المشرعة... والخضرة المترعة بالحديقة المحيطة.. والأشجار تصطف كما الحراس حول البيت الجميل.

هذه التجربة الثرية هى النبع الأصيل لمجموعتى القصصية الأولى «بيت الطالبات»، والذى تحول فيما بعد إلى فيلم سينمائى. وكانت تجربة جديدة فى الكتابة أيضاً إذ عن لى أن أكتب عن اللحظات والشخصيات عن طريق القصة القصيرة التى تدور جميعا على مسرح بيت الطالبات. وعندما ينتهى القارئ منها يكون قد شارك بنفسه فى عملية الخلق والتصور للحياة داخل بيت الطالبات وتعرف على الأحداث والمشاعر والمتناقضات والصراع.

بة من الحرية والرغبة فى تحقيق الذات ومدى المعاناة.. والصمود من أجل حياة أفضل للجميع.

القصة القصيرة عندى مثل رحيق الزهرة توقظ الحس والتفكير وتوحى بالمعنى والجمال.

القصة القصيرة وجدتها مساحة حرة تمثل اللمحة البارقة والانتباهة المدهشة واللحظة الموحية.

مثل لقطات الفيلم السينمائى يمكن أن تتوهج فى الذهن وتتقد وتبقى ماثلة فى الذاكرة والوعى. تمثل المفارقة الذكية من خلال الحياة العادية أو أحداث كل يوم.. تكشف عن عمق ومعنى ووجهة نظر مبهرة.

إن فى قصرها وتركيزها تكمن قوتها الحقيقية ووسعها وتأثيرها.

مجموعة قصص «بيت الطالبات» يضمها المكان ووحدة الزمان وتعطى الجو المميز الخاص بالداخل والجو العام الخارجى فى المجتمع والجامعة وبر مصر كلها.

قال بعض النقاد إنها أشبه بلقطات سينمائية بارعة داخل بيت الطالبات الذى يسع قلب الوطن كل قصة وحدة قائمة بذاتها تنتقل اللحظة المحدودة داخلاها إلى لحظة إنسانية وتاريخية جامعة. وتبحر الأحداث فيها من الخاص إلى العام. وتتواصل مع الطموح الجميل فى لحظة تفجر ثورة - لإقامة البناء العام - وهو فى نفس اللحظة يبنى الخاص ويدعمه بالعلم والمعرفة والتدريب الخلاق.

بجانب العلم تتدرب الطالبات على السلوك الاجتماعى السليم. وقيم المشاركة، والحوار، واحترام رأى الآخرين. ومعنى أن تقوم الأسرة أو العلاقات فى المجتمع على الحب والتفاهم بدلا من التسلط والاستبداد، الشباب فى حاجة إلى الدفء والرعاية والحنان.. لا نملى عليهم القرارات ونفكر بدلا عنهم، بل نستمع إليهم ونعرف أفكارهم، - فى الحكم والمجتمع تبنى العلاقات على أساس الحب لا القهر.-

اندهش أستاذنا **شكرى عياد** لأننى لم أمسك بوحدة هذا النسيج الجيد لأكتب رواية.

«توهمنا أن الكاتبة تقدم لنا افتتاح رواية. لقد شدت قماشها وبدأت ترسم وإذا بها تنتهى من رسمها سريعاً، وربما يعود إليه الفضل فى أننى كتبت الرواية بعد ذلك. وإن كنت مازلت أكتبها بتكثيف وتركيز وإيحاء القصة القصيرة أيضاً. وتشهد قصة «المسافة» فى نفس المجموعة فهى أقرب إلى الرواية القصيرة.. وحتى كتابة السيناريو الذى اعتمد عليه الفيلم بعد ذلك.

أحب أديبنا «**نجيب محفوظ**» هذه التجربة الفنية الجديدة وقال أنها أشبه برواية «حى بيتون بليس Peyton place» ذلك النوع من السرد المنفصل المتصل - مجموعة من الأسر تقيم فى حى أو شارع هادئ - كل فصل من الرواية يتحدث عن أسرة.. شخصية لها واقعها الخاص وتتصل حكاياتهم بواقع الحياة فى الحى.... تتشابك الحكايات وتتواصل وتكون فى النهاية صورة للمجتمع نفسه. وهو ما أردت تحقيقه بمجموعة «بيت الطالبات»، إذ من خلال معزوفة الطالبات الجامعيات

نشهد ونتابع حركة المجتمع وتطور أحداث الوطن وبدء ثورة وطنية وشوق ممتد لتجدد وجه الحياة.

عندما عدت إلى أوراقى.. وجدت أنه ماتزال لدى المزيد من القصص عن بيت الطالبات أرجو أن أضمنها المجموعة يوما ما.

قصة الأختين «التوأم» فى المرحلة الأخيرة للدراسة بكلية العلوم. رسبت إحداهما وكان عليها أن تعيد السنة الدراسية.. تصادف مع صدور قرار أن لا تسمح إدارة بيت الطالبات بإقامة الراسبات، لأنها تسلب الفرصة من فتاة مغتربة ناجحة من حقها الإقامة فى البيت.

وأتى الأب غاضبا من قريته النائية بالصعيد الجوانى - وأين تقيم البنت إذن؟ فى شقة بمفردها.. عند أقارب؟! هذا عيب ولا يتفق مع التقاليد.. حل المشكلة إذن أن تعود الفتاة إلى البيت - ولا يمكن أيضاً ترك أختها وحيدة فلابد أن تلقى نفس المصير!

وكان يوماً حزيناً مزلزلا فى بيت الطالبات - وقررنا ألا نستسلم - حقا القرار له منطقة وحجته القوية - ولكن لابد عند التطبيق من مراعاة الجانب الإنسانى.

طلبوا منى قيادة مجموعة الاحتجاج والنضال من أجل ألا يضيع مستقبل البنات كتبنا لجريدة الأهرام وأيدت أن ينفذ القرار مستقبلا وليس بأثر رجعى. وذهبنا إلى الكاتب العظيم **سعد مكاوى**، وكان قد نشر لى بعض المقالات والخواطر بجريدة المصرى وأيد وجهة نظرنا. وتعلمنا منه أنه لابد من فكر جديد لمعالجة المشاكل.. ولا نركن إلى

الحلول التقليدية. استطعنا أن نشعل الجدل... وكأنما وضعتنا الظروف أمام أمتحان فى القدرة على الحركة والنضال وفن جذب انتباه الرأى العام والرجوع إليه دائماً، وإثارة قضايا الحرية وحق العمل وألا تحرم التقاليد فتاة من فرصة مواصلة التعليم والتحقق والعمل.

ووصلنا إلى **أمينة السعيد**. وقفت معنا وإن كانت أوصت بضرورة النجاح والتفوق من أجل الحصول على الحقوق بقوة لا عن طريق الرجاء ومراعاة الظروف.

أجمل ما حدث لنا أن ذهبنا إلى الأستاذ **إحسان عبدالقدوس**. عندما وقفت أمام الدار العريقة القديمة والتى تفجر ثورة فى الأمة العربية وفى الوجدان - فى الفن والأدب، قلت هذا بيتى وعدنا من لديه أكثر حماسا وعزما وأملا فى مستقبل الأيام.

أول بيت فى العاصمة بيت الطالبات - وأول بيت للكتابة «دار روز اليوسف» وأول قصص لمجموعة نشرت على هذه الصفحات. وتعلمنا فن الكتابة المجاهدة وصياغة التعبير الخلاق.

قبل منتصف التسعينات كنت أعد لمجموعة قصصية جديدة. معظم القصص فيها تدور فى البحر (أجد فى البحر موسيقى تشع فى الروح وتسع العقل والوجدان)

أحلامى تسكن الماء الحى. وساحة أقيم فيها الصلاة والكلمات.

وقلت أضمنها بعض القصص من المجموعات الأخرى وعلى مدى أربعين عاما - وتتداعت الذكريات.

وفجأة انقطع النور.. وتذكرت تلك العبارة التى كانت تقولها لنا «الأنسة جيتا» مديرة بيت الطالبات: .. الإنسان فى حاجة إلى تلك اللحظة التى يغلق فيها عينيه ويرى النور الكامن بالأعماق،،

(حقا تتفتح عين القلب وتستقر فى الصمت العميق ونرتفع لنمسك بلحظات ونصل إلى الوعى والإدراك.)

وهذا ما حدث لى..

كانت الزميلات تبكى عندما ينقطع التيار أيام الامتحانات فى بيت الطالبات. الأخت الكبيرة جيتا كانت تعمل بيننا بروح الراهبة حقا.. كلماتها بسيطة.. مؤثرة وموحية.

كانت تقول،، يجب ألا ننجز الأعمال فى اللحظة الأخيرة - يجب أن يكون الإنسان على استعداد دائماً..

وقلت فى حينها.. لها روح بحار..

(وهى بالمناسبة ابنة خالة **سوزان طه حسين**- كانت قد فقدت خطيبها فى الحرب وقررت أن تدخل الدير) وأبرقت لها سوزان من القاهرة، قالت: إن مملكة الرب تقوم فى القلب المؤمن - وأن الخدمة لله يمكن أن تقدم فى أى مكان - لماذا لا نجرب عمل الإشراف على طالبات يجئن إلى العاصمة فى طلب العلم ويقمن فى بيت الطالبات.

ووهبت نفسها لطريق العلم والنور. كانت مثل الزهاد والرهبان الشجعان تؤمن بأنه:

«عندما تبكى النفس ما فقدته.. تفرح الروح بما نالته.»

تقول أيضًا ألانسرف فى الأحزان.. نقوم بعمل صالح ففيه الرضى والعزة.

تصحبنا إلى حجرتها - حجرة واحدة تستعملها مكتبًا وكنبه فى الركن تنام عليها فى المساء - كى لاتشغل حيزاً من البيت - ويتسع أكثر للطالبات.

تقول هيا نغنى .. لنستمع إلى الموسيقى الداخلية ونصل إلى النور الكامن بالأعماق.

(نرسل رسائل إلى أحبائنا .. نبث فى الكون آيات الحب والشوق)

صوتها يقطر بالدموع وهى تغنى.. «فارس رحل بعيداً عبر البحار والمحيطات

My Bonnie is over the ocean

صوتى يشرق بالدموع وأشاركها الغناء.

- لم أكن أعرف أننى يوما ما سأنادى على بحارى الذى غاب - وكتبت قصة: أغنية البحر أقدمها اليوم لكم.. تمثل إضافة ورسالة وتواصلا .. أجعلها خاتمة الكتاب الآن . القصة التى نسيت أن أضمنها مجموعة «بيت الطالبات» فى طبعتها الأولى بالكتاب الذهبى: ديسمبر ١٩٦١، بل وجعلتها عنوانا للكتاب الجديد - وكانت أيضا: الاهداء:

«أغنية البحر القديمة
تدور بحد يثير الدهشة.
البيت والشجرة والكلمات تعيش حضورك
قريتك.. سنديس - الأرض الندية تضمك
تحتضن بها قلب الوطن ووجوه الأحبة.
مازلت أقبض على الجمر - أسعى للعثور على أيقونة حية..
أغوص وراء «لؤلؤة» كامنة - أعيش لأكتب.
هذا عملى.. وتلك مهمتى.»

فوزية مهران

القاهرة ١٩٩٩

على السلم

كانت المرة الاولى التى أغادر فيها بلدتى إلى القاهرة وكم أحببت الحياة الهادئة البسيطة التى نعيشها هناك.. ولكنها أبدا لم تكن حياتى.

أنا مجرد آلة تدور وتعيش يوما بيوم وتترك مصيرها للأيدى الكبيرة الحازمة تدبر لها كل شيء وترسم حياة كل يوم.

وأصبحت الجامعة هى الحلم الذى أعيش به.. أعرف أننى سأذهب إلى القاهرة بمفردى وسأكون وحدى لأول مرة.. فأبى لن يستطيع ترك تجارته الصغيرة فى البلدة.. أما أنا فسأعيش .. وأتنفس بحرية.. وأفكر وانطلق وأقرأ كل ما أريد..

وأتى اليوم الموعود.. ودعت بلدتى.. تركتها ترقد كالعروس الكسول بين أحضان النيل الوداع.. والقطار يطوى بى المسافة إلى القاهرة وأنا أطوى صفحات من حياتى الماضية وأودع أشباحا باهتة تراقصت فى حياتى رغما عنى..!

صورة واحدة ظلت تتبعنى بين الأشجار والحقول.. وجه أحمد وعيناه الزائغتان تنظران إلى فى جزع وأنا أسير وأبتعد عن عالمهم الصغير المحدود.

أحمد هو جارنا الصغير .. وأنا أحبه .. أحب تسكعه تحت نافذتى.. أحب نظراته كلما التقينا على السلم أو فى دكان أبى..

كنا نعيش بين حجرات ضيقة مغلقة وأبى يفرض نظاما قاسيا..

وهو معذور.. معذور إذ كان لايرى الحياة إلا جهادا وعملا فقط.. هكذا عرفها وشقى من أجلها.. وهو يفرض علينا المذاكرة والتعليم لكى يضمن لنا مستقبلا أحسن منه..

وكنت أفعل كل ما يريد.. وأكثر مما يفرض على.. ولكنى كنت فى غفلة منه أقرأ الأشعار والروايات العاطفية وأحلم بأن تكون لى قصتى ذات يوم.

ورأيت العينيين الجميلتين ترقبانى.. وأحببتهما .. تعلقت بهما منذ اللحظة الأولى وتعودت أن أرى فيهما معنى جديدا للحياة.. وأحس من خلالهما بدفء لذيذ يسرى فى القلب والجسد.

وابتعد بى القطار.. والنظرات تتبعنى.. والقاهرة تقترب وتبين لى ظلالها كأنما أذرع ممدودة ترحب بى.. وكان أبى - كالعادة - قد أعد لى كل شىء .. ورتب نظام معيشتى ودفع رسم التحاقى ببيت الطلبات.

لقد سره كثيرا أن وجد الحياة فى هذا البيت صورة مشابهة تماما لبيته هناك .. ونظامه الصارم يطابق فلسفته فى الحياة .. عمل .. ومذاكرة ثم يغلق علينا الباب الخارجى بقفل حديدى كبير فى الثامنة مساء وينام أبى مطمئنا على مصيرى ومستقبلى.

ووصلت إلى الدقى حسب العنوان.. وتوقفت عند قصر صغير تحيط به حديقة كبيرة، وضحكت عندما وجدت المظهر الخارجى للبيت يختلف تماما عن بيتنا..

مهما كانت الحياة هنا فلا شك أنى سأحبها.

واجتزت الحديقة بخطوات قافزة، وصعدت السلم كعادتى ثلاث درجات فى خطوة.. لكنى توقفت أمام الباب وبقيت لالتقط أنفاسى المبعثرة وعدت أنظر إلى السلالم من جديد..

فى صعودى ونزولى هذه السلمات سأصنع لى مستقبلا وانسج خطوط حياتى..

وجاءت المشرفة تستقبلنى وتتفحص بنظراتها ملابسى وحقائبى.. لعلها تدرك أى نوع من البنات أكون وأسهل الطرق لمعاملتى..

واسترحت عندما ابتعدت عنها، وأن كنت أحس بوقع نظراتها تتساقط على ظهرى..

ذهبت إلى الحجرة التى عينتها لى.. سأجد أربعا غيرى فى انتظارى، وعلى أن أعيش معهن.

وعندما أدخلت رأسى من الباب بدت لى الحجرة كعنبر مستشفى، وسعدت لفكرة أن يكون لى سرير خاص صغير..

لكن تلك العيون الثمانى التى تحملق فى.. والشفاه تحاول أن تبتسم أو تقول كلمة ترحيب..

وعندما تأملتهن كادت تنطلق من صدرى ضحكة عالية جاهدت طويلا فى كتمها.. لكنها ظلت تعربد فى صدرى..

نظرة واحدة إلى الفتيات أدركت بعدها مدى الغرابة التى جمعتهن معا فى حجرة واحدة..

الأولى تبدو ثرية، أو هى تتباهى بالثراء وتعرض محتويات دولابها بدعوى تنظيمها..

والثانية ريفية لايعجبها الحال.. وتنكب بجسدها على وابور السبرتو تصنع الشاى..

واحدة منطوية تدفن جسدها فى الفراش ووجهها فى كتاب..

والأخرى ثرثارة لايدخل لسانها إلى حلقها عندما دخلت سألتنى بسرعة عن أسمى وكليتى وبلدتى وكل شىء..

وأنا ؟ .. مثل كوب الشاى الساخن الذى تصنعه الزميلة لتدفىء به شفتيها ويتصاعد بخاره إلى رأسى ناسجا دخانا من الأحلام والرغبات..

وجلست على سريرى أتابع الشجرة العالية أمام نافذتى.. إنها الأخرى تقف كالحارس أمام بيت الطالبات ..

وفكرت.. كيف ستكون حياتى فى هذا البيت؟

وعاد تفكيرى إلى بلدتى.. إلى أحمد .. ترى ماذا يفعل الآن.. وكيف يفكر..

وضحكت..

لم أسأل نفسى من قبل كيف يفكر .. ولاعنيت أن أعرف..

كل ما يهمنى كانت عيناه .. ونظرته.. والدفء الذى يسرى فى قلبى..

أعرف أنهم يلقبونه بالخايب.. وأنه يبقى وقتا طويلا فى دكان أبيه ويفضل ذلك عن الذهاب إلى المدرسة فى كثير من الأحيان..

ولكن كيف كان شعوره اليوم وهو يرانى أبتعد ؟.. كانت نظرته زائغة، وكان يشير باشارات كثيرة لم أفهم لها معنى..

أن أخاه أيضا يستعد للذهاب إلى الجامعة.. هل يأتى ويقيم معه .. ويبقى بجانبى..

لكن لماذا لم يكن مثل أخيه؟

وعندما جاءت اللحظة الحاسمة.. وأخذت طريقى للذهاب إلى الجامعة فؤجئت أن وجدته أسفل السلم ينتظرنى ويقف باسما.. تماما كما كنا نفعل هناك..

- أحمد بتعمل أية هنا؟

جيت مع أخى .. ومعايا جواب من والدك

- يا ريتك معايا فى الجامعة..

- أنا لاتهمنى الجامعة

- ومستقبلك؟

- فى الدكان فى بلدنا.. يعنى ايه أخرة وجع القلب ده أنت وأخويا؟

وظيفة؟ مش عايز وظيفة

واستدرت أهتف.. يا خسارة..!

وتطلع إلى وجهى ليعرف ماذا أعنى بالخسارة .. لكنى كنت أبتعدت ولم آخذ منه حتى رسالة أبى .. صعدت سلمات تفصلنى عنه درجات..

ألم أقل أننى فى صعودى وهبوطى هذه السلالم سأصنع لى مستقبلا وأكون حياتى وغدى.

يجب

من بين الكلمات التى أصبحت تلعب دورا كبيرا فى حياة آمال كلمة «يجب» وكلمة يجب دائما تتبعها تضحيات وقيود تفرض على حرية الإنسان.

وجلست آمال فى حجرتها تقرأ لائحة الإقامة فى بيت الطالبات.. كل ما يجب أن تفعله وتتصرف فى حدوده..

وأمامها جلست زميلتها عايدة تفتح حقائبها لترتب ما بها داخل الدولاب.. وكانت تزفر غاضبة لأن الأوراق التى كانت بين يدى آمال تقول أن لكل طالبة أن تشغل نصف هذا الدولاب.. أى ضلفة واحدة فقط..

ولم تكن آمال قد ضاقت بهذا البند.. بل عبرته بسرعة إلى غيره من الواجبات.. كانت تغلق الضلفة بمفتاحها على ظلمة وفراغ كبير..

أشياء محدودة التى تملكها.. جونلة.. وثلاث بلوزات .. وتايير جديد.

ولكن عايدة تلعن وتسخط..

ـ مش معقول.. يعنى أحط هدومى فين .؟ لازم أقول لعمى يكلم أبلة نعيمة تجيب لى دولاب لوحدى.. دى حتقضى ايه ولاايه؟..

وتدفن آمال وجهها فى الكتيب من جديد.. وترجو فى سرها ألا تلح عليها عايدة فى الأسئلة.. وتقوم عايدة وهى تمسك بثوب أنيق مطرز بأشياء لامعة وتقترب من آمال..

ـ تصورى أنا مارضيتش أجيب كل فساتين التواليت.. يعنى حالبسهم فين؟.. إنما جبت خمسة بس.. للظروف .. ويرضه الدولاب مش مقضى كل الحاجة..

وتحملق عايدة فى الثوب المضىء.. وتود لو تعطيها نصيبها من الدولاب.. فقط تكف عن هذه الضجة وعن ذلك الإستعراض المؤلم.. ما حاجتها هى إلى دولاب أن نصف ممتلكاتها ترتديها حاليا.. ولكنها تتذكر كلمة «يجب».. فتسكت..

وتعود عايدة لتلوك نفس المشكلة:

ـ طيب والحاجات الصغيرة دى كلها أحطها فين؟ الإكسسوار وأدوات التواليت.

وتحدق آمال فى العلب الصغيرة الفخمة.. وفى ألوان الحلى المتعددة.. ماكل هذه الأشياء.. ومالزومها لطالبة جامعية صغيرة مثل عايدة..

وتجلس عايدة وسط عاصفة من الملابس والحلى والحقائب.. ويضيق الدولاب بمحتوياته وتزفر عايدة بسخط: والغيارات.. والفوط .. وقمصان النوم .. أحطهم فين بقى؟

تفتكرى أخلى الشنطة الكبيرة دى هنا على المائدة.. وأحط فيها الحاجات دى؟

وتقول آمال:

ـ شوفى ياستى مكتوب أن المائدة يجب أن تستعمل من أجل المذاكرة فقط.. ولايجوز وضع شيء عليها..

وتصرخ عايدة: أوه.. يجب وأنا أعمل ايه..

وتستفهم آمال: أنما دى الشنطة عاملة زى المخزن بالضبط .. يعنى قمصان النوم أد أيه؟

وتضحك عايدة وتفتح من حقيبة صغيرة وتلقى على الأرض بأوراب حريرية.. وبيجامات وقمصان كثيرة متعددة الألوان..

وتخطف قميصا حريريا شفافا.. وتذهب ناحية آمال فتلقيه أمامها.. وتقف لكى تساعدها آمال ذى فتح «سوسته» الفستان.

وتتوقف آمال عن النظر إلى السطور.. بل وتسقط الأوراق بين ركبتيها.. وهى تفتح فمها بدهشة..

كانت تحس بطراوة الحرير ورقة ملمسه وتود أن تستسلم لذلك الشعور اللذيذ ولكن دهشتها ظلت ممزوجة بالفزع حتى سألتها عايدة:

ـ ايه مالك؟

ـ أبدا بس يعنى القميص ده..

وتمايلت عايدة بضحكة متقطعة..

ـ يعنى ايه .. «مشخلع» شوية؟

أبدا.. دى حتى مدام كاترين اللى مفصلاه.. طب ده أنا يا بنتى لهفت شوية أطقم من عند مامى.. كانت جايباهم من باريس.. القميص والروب بتاعه.. كله.. كله يعنى «كوستيم» واحد.. أنما أيه يجننوا

وابتلعت آمال ريقها.. لماذا قدر عليها أن تعيش مع عايدة فى حجرة واحدة..

كيف ستنام؟ .. وماذا ترتدى أمامها؟ لابد أن تبقى بملابسها كاملة كل ليلة حتى تنام ثم تلبس جلبابها.. ليس لديها قميص نوم.. هذه هى الحقيقة.. عندها فقط جلباب .. وهى تتذكر تماما وقت أن كانوا يعدون لها ملابسها وهى تستعد للمجيء إلى بيت الطالبات قال أبوها أنه لايملك أى شيء .. تايير واحد بس تروح بيه الكلية.. يعنى زى المريلة .. البنات المحترمين يروحوا الجامعة بمريلة.

فعلا ويعدين أهى عندها كام بلوزة كمان وخلاص..

وقالت الام:

ـ طيب بس عايزين روب.. وقميص نوم كمان وصرخ الأب:

ـ أنت امرأة مجنونة.. قميص نوم؟

يعنى ايه قميص نوم ؟ دى قلة أدب..

بنت.. طالبة.. وجامعية يلزمها قميص نوم..!.. تعمل بيه ايه؟

أنت فاكرة أن ده جهاز.. ولاهية رايحة تتجوز

وقالت الأم فزع..

ـ أنا مش قصدى.. هنا يمكن تقضى بأى حاجة .. لكن مادام داخلية .. وفى وسط بنات.. يبقى يعنى لازمها.. وصرخ الأب هائجا:

ـ اوعى تطلعيها من بقك .. اوعى تقولى الكلمة دى قدام بنتى اللى علمتها وربيتها.. عايزة تفسدى لى أخلاقها وتعلميها قميص نوم..

ونكست الام رأسها بذلة.. وقالت آمال باستسلام:

ـ ماما مش قصدها حاجة.. هيه عايزة تقول يعنى جلابية للنوم.. جلابية كده عادية.. بس أنام فيها..

وتنهد الأب بارتياح:

ـ أهو ده معقول.. يبقى اسمها جلابية.. مش الحاجات الفظيعة دى..

ماذا كان يقول والدها لو أنه رأى عايدة الآن تتبختر بهذا القميص الحريرى العارى..

هل كان يطمئن عليها.. وعلى أخلاقها وهى تعيش بين بنات تمرح أجسادهن داخل حرير دافىء ناعم مثل هذا؟ ..

وهى كيف ستنام .. وماذا تلبس وقد ظل أبوها واقفا أمام أمها يراقبها وهى تخيط لها الجلباب البائسة ويطمئن أنه بكم وكولة وليس له ذيل طويل..

وسألتها عايدة:

- حتفضلى كده ؟ .. مش تقلعى

ووقفت آمال وهى تستمع بارتياح إلى صوت جرس العشاء .. وهى تقول بكبرياء:

- هنا يجب ننزل على الأكل.. واحنا لابسين.. مافيش داعى الواحد يفضل يقلع ويلبس كل ساعة..

واعتقد أن ده تقليد جميل.. يجب تتبعه ..

قالتها بتأكيد.. فلأول مرة تكون التعليمات فى صفها.. وكلمة يجب ليست بالقيد البغيض.

البرج

أطفىء النور فى الحـجـرة الخـامـسـة من الدور الثـالث من بيت الطالبات - أو البرج - كما تسميها البنات وفيها تعيش آمال ونوال.

والحـيـاة فى «البـرج» كلهـا أفكار ونقـاش والبنات تسـمى الزمـيلتين «فلاسفة الدار» وتنبعث دائما حولهما الضحكات.

وفى البـرج كـانت هناك أيضـا ضـحكات.. فـبـعـد أن أطفىء النور ووضعت «آمال» الكتـاب الذى بيدها استـرخت فى هدوء فى حين ظل عـقلهـا يقظا يفكر فى المعـانى التى عـاشـهـا الليلة واسـتـعـدت «نوال» للنقاش.. فلابد أن صـديقتـهـا ستقول شيئـا مـا.. وستجد هى فيه مـادة لسخريتها وإثارتها..

لكن آمـال ظلت صامـتـة.. ظلت راقدة مـثل الموميـاء تحت الملاءة البـيضاء التى تغطى جـسدها وتصل إلى ذقنهـا.. وعـيناها تتـوهان فى سقف الحجرة..

ولم تستطع نوال أن تبـقى صـامتـة أمـام هذا المنظر فضـحكت وهى تقول:

- هوه كتاب الليلة كان عن التحنيط ولا ايه؟

ولم ترد آمال.. وان كانت عرفت أن الشوط قد بدأ وأن شيئا لن يجعل نوال تكف عن تعليقاتها الساخرة..

فاعتدلت وقالت بهدوء وبصوت حاولت أن تجعله مؤثرا:

- تعرفى يانوال.. ساعات تلقى جملة واحدة فى الكتاب تدلك على جوهر الكاتب وكل اللى بيقصده من كتاباته..

- وايه بقى أحسن جملة عجبتك الليلة؟.. ما أنا عارفة دايما تغريك العبارات الطنانة..

- لا أبدا.. تصورى مثلا الكاتب ده بيقول ايه؟!.. «أنا أزرع قلبى على الورق.. فينبت فى قلوب الناس» وساد الصمت لحظة..

ثم انطلقت ضحكة مجلجلة فى الحجرة انزعجت لها آمال وأفسدت عليها الجو الشاعرى الذى كانت تعيش فيه تلك اللحظة ونظرت إلى نوال بغيظ قائلة:

ايه حاجة تضحك دلوقت؟

وأستمرت نوال فى الضحك وأنفاسها تعلو وتهبط ومن تحتها السرير يئن وكأنه يشاركها صخبها.. واستطاعت فى النهاية أن تغالب أنفاسها المتهدجة وقالت:

- يزرع قلبه على الورق؟ .. ده لازم يكون ورق نشاف علشان ينبت..

وكـادت آمـال تبكى.. هاقد أفسدت نوال عليـهـا الصـورة تمامـا .. وقالت بحنق:

ـ انت دايما كده.. ممكن تشوهى معنى جميل فى سبيل نكته.. لكن ازاى تسخرى من الحب..

وقالت نوال:

ـ أنا أسخر من الحب.. مش معقول.. بس باضحك على صاحبك ده علشان مالقاش تشبيه لقلبه إلا حبات القمح أو الشعير..

لكن اسمعى أنت زعلت كده ليه.. الظاهر أن حبه نما فى قلبك أنت وساد الصمت .. فعادت نوال تقول بصوت هادئ:

ـ انت زعلت يا آمال؟

ـ لا

ـ لسه بتفكرى فى الحب؟

ـ مش الحب اللى تقصديه.. أنا بفكر فى الحب الإنسانى الكبير..

ما هو كله حب ياستى.. وانت علشان تحبى الناس كلهـا مش لازم تحبى واحد الاول؟

ـ لأده كلام فارغ.. أنا ما أرضاش عن عمايل البنات.. وقالت نوال فجأة وكأنها تذكرت خبرا:

ـ أنت عرفت أن سعاد بتروح تذاكر عند صاحبها فوزى فى شقته

ـ أهو ده امتحان للحب .. حاجات كتير بتم كمان باسم الحب..

وتخابثت نوال:

ـ مش رأيك أن الحب تفاهم؟ .. خلاص أهى سعاد بتفهم الدروس مع فوزى .. فيها حاجة دى؟..

ـ لأ ده لعب.. ما يروحوا أى حته تانية غير البيت..

ـ ما هم خرجوا بره كتير .. كانت النتيجة الاشاعات السخيفة..

وقالت آمال بتصميم:

ـ دى حتى سعاد ما تعجبنيش . واحدة بتلبس بالشكل ده.. والالوان الفاقعة دى مش ممكن تكون عواطفها جادة.

ـ يعنى لازم تحب اللون الاسود زيك وكدة تبقى تحب بجد؟

وتذكرت آمال قصتها مع اللون الاسود.. نوال دائمة الاعتراض على ارتدائها هذا اللون.. ومن قبل كانت أمها

تعنفها أيضا ولكنها لاتعرف لماذا تفضله على سائر الالوان وتحس أنها بداخله يصبح لها مظهر عملى وقور..

وقالت نوال:

ـ بمناسبة الاسود لازم نعزى صفاء.. آخذ بلوزتك السودة وأنت طبعا عندك الفستان والتايير.. ولا ايه رأيك مش ضرورى نلبس أسود.. هوه المفروض يعنى يكون عندنا طقم للعزا؟..

وردت آمال وذهنها غائب:

- لازم نلبس أسود.

وعادت لتسرح من جديد.. وتتخيل منظرهما فى الغد بالثياب السوداء .. والاحذية السوداء وهما يزحفان معا خارج البوابة الكبيرة مثل القطط

أنها قطة سوداء حقا.. وهى قد انسلت من البيت ذات مساء وذهبت لتقابل صديقها الكاتب فى المجلة.. راحت تناقشه فى كلماته التى تبهرها.. واستمع إليها طويلا لكنه قال فى النهاية أن الواجب عليها أن ترفع عنها القوقعة التى تعيش فيها وأن تعرف وتجرب الناس إذا كانت تعد نفسها للكتابة عنهم..

تماما نفس منطق صديقتها نوال.. ولكن لماذا يجدها الناس غريبة عنهم وهى التى تبذر حبات قلبها من أجل حبهم والإيمان بهم؟

ومع ذلك تحس معه أنها شخصية كبيرة ومسئولة وانها تستطيع أن تقرر وأن تعطى رأيا فى الاشياء والحياة..

وعندما تسللت الليلة من البيت بالثوب الأسود كانت تخشى عيون الفتيات.. فالموعد لم يكن فى المجلة إنما فى الكازينو القريب..

وعلى الباب واجهتها العاصفة وبرودة المساء وأحست بجسدها يرتعد.. وخوفها يتزايد.. وبين الاتربة المتناثرة وأوراق الشجر المتساقطة وجدته يقف بنظارته السميكة فى جانب الحديقة فى انتظارها..

وما أن رآها قادمة حتى أطفأ السيجارة وأسرع نحوها وهو يقول:

- هيا نبحث عن مكان أكثر دفئا وهدوءا

وأسرعت معه .. وألقت بنفسها بجواره فى السيارة .. والسيارة تتوقف أمام منزل صغير..

ماذا هل يذهب بها إلى بيته ؟

وسألها: أنت بردانة ؟

- لا

- طيب خايفة..

- برضه لأ..

هكذا سمعت نفسها تجيب.. ومع ذلك كانت خائفة.. وجسدها لايرتعد فقط من البرد وهى تنظر إلى صاحبها.. وجهه يوحى لها بالثقة..

جسده ضئيل.. ورأسه كبير.. أنه رأس فقط.. وهى هنا معه لتناقش لتبحث عن الأفكار ولتعيش تجربة ذهنية رائعة..

لكن لماذا تظلم سعاد؟..

وماذا لو رأتها احدى الزميلات..

آه لو رأتها واحدة وهى تخطو بقدمها عتبة البيت.. وتعود إلى البنات بالخبر المثير وتلتفت حولها الاعين الفضولية..

وتلوك سيرتها الألسنة التى لاترحم.

ونظرات إلى الأوراق والكتب والقلم.. إلى كوم الجرائد والمجلات المكومة فى الاركان .. وبدأت تحس بالاطمئنان ..

لايعذبها شيء الآن سوى تحاملها على زميلتها سعاد..

وعندما سألها لماذا ترتدى دائما السواد قالت:

- حزنا على حياتى الماضية.

وأمسك بيدها وهما يعبران الطريق.. وهى تترك يدها كسلى ترقد بين أصابعه الحانية.. وهو يسير بها بجد لأنه يعرف إنها تأخرت على موعد البيت.. وهى تمشى ببطء وكأنها فاقت من حلم طويل.. حتى لم تهتم بنظرة الذعر والدهشة التى ارتسمت على وجه المشرفة عندما فتحت لها الباب.

وصعدت إلى الحجرة لتجد نوال ساهرة أمام كتبها.. ولم تكن تريد أن تشرح أى شيء.. كل ما حدث جلست تجتره ببطء ومهل وتتابع سطور الكتاب الذى أعطاه لها .. حتى أطفئ النور وكان بينهما الحديث وهى ترد ساهمة شاردة لأنها تعيش ما حدث مرة أخرى وتتفهم وقائعة.

وعاد صوت نوال ليسألها:

- ايه رأيك ننادى سعاد هنا وننصحها؟

- ننصحها بايه؟

وقالت نوال دهشة:

ـ الله.. يعنى نقولها ماتروحش البيت مع فوزى

ـ ياستى هيه حره وتعرف مصلحة نفسها

ـ عجيبه.. أنت غيرت رأيك.. اوعى كمان تنسى تدينى البلوزة السوده وسألت أمال باستغراب:

وتلبس اسود ليه؟

ـ مش قلت لازم نلبس اسود

ـ أبدا .. ده حتى لون كئيب .. ما فيش أسود على طول وجرت نوال إلى مفتاح النور لتنظر إلى وجه صاحبتها فى الضوء.

ودوت صرخة بين الطالبات فى منتصف الليل.. تبعتها صرخات حتى اشتعلت الادوار الثلاثة كلها بالصراخ.. والحناجر تطلق آهات الفزع والخوف يتبعها اسم حسن الجنايني.

عندما أضيئت الانوار وتلاقت البنات الفزعات مع المشرفات والخادمات وكل واحدة تسأل زميلتها عن سر الصراخ.. وماذا فعل اللعين حسن الجنايني؟

وصاحت المشرفة بأعلى صوتها:

- وهو فين حسن الجنايني؟ ده روح بعد المغرب ايه اللى حايجيبه عندكم؟

وتدلت الرءوس وكست الوجوه الشاحبة حمرة الخجل وقالت واحدة:

- لعله كابوس

وبدأ الانسحاب إلى الحجرات.. لكن الصمت الذى ران فجأة على بيت الطالبات كان كله يهمس باسم حسن.. ولماذا حسن الجنايني بالذات؟

كان البيت الكبير يعد قلعة للبنات ومستعمرة لايقيم فيها إلا النساء.. والكل فى الداخل يتصرف بحرية وطبيعية .. ولن يصدق أحد ما يمكن أن يراه من مظاهر غريبة تبدو عليها البنات وهن فى مأمن من عيون الرجال..

حسن الجنايني فقط هو الذى كان يثير الضيق والحرج فى هذا العالم النسائى الكبير..

أنه الرجل الوحيد المسموح له بالصعود إلى الصالة الكبيرة لتنظيفها وتلميعها.. وكان والحق يقال يغضى الطرف كلما مرت به احدى الفتيات لكنه كان من ذلك الصنف من الرجال الذى تشعر بوقاحة نظراته وعبثها حتى لو كان مغمض العينين.

كانت نظراته تتلوى على ظهور البنات وتتفحصها..

وتقول اجلال:

- تصوروا بافتح باب الأودة وأنا بالقميص لقيته قدامى وترد سعاد:

- ولا ساعة ما كنت بادعك وشى بالليمون وبصيت لقيته واقف يتفرج على وتتصاعد الأسئلة:

- يا اختى مخلينه ليه فى بيت الطالبات

- مش معقول أبدا ده حتى منظره مجرم

وتضيق اجلال من سيرته فتقول:

- واحنا مهتمين بيه كده ليه.. ده حتة خدام

وتصيح كثيرات:

- خدام .. خدام.. لكن برضه راجل

- راجل بغيض

وهكذا بدأ حديث الليلة فى حجرة «سعاد» وانتهت سيرة حسن عندما بدأت تصف بيت زميلتها التى تزوجت منذ شهر.

وسألتها إجلال:

- هية قالت لك كل اللى حصل؟

وضحكت سعاد وهى تقول:

- دى لئيمة عمرها ما تحكى حاجة.. لكن ده أنا لهفت من عندها كتاب.. ياخبر .. فيه حجات...

واقتربت منها الرءوس وارتفعت التنهدات والضحكات المكتومة حتى التهبت الوجوه والكلمات وصرخت نوال طالبة الطب

- كفايه بقى كلام عن الحب والجواز عايزين ننام

واغتاظت سعاد:

- يا اعنى احنا زيك.. بنعرف كل حاجة من المشرحة.

وسألتها اجلال بعناد:

- انما يا نوال وشك ما يحمرش وانت بتشوفى الأجسام عريانه..

وقالت الدكتورة:

- لأ.. ده كان زمان .. دلوقت ما فيش خجل من أى حاجة.

وتخابثت سعاد: حتى لو ماكانتش ميته؟

وتناثرت الضحكات وكل واحد فى طريقها إلى حجرتها أو سريرها وأطفأت نوال النور وقامت لتحكم اغلاق الباب.. فقالت لها إجلال:

- سيبى الباب يا نوال علشان أقوم أصلى العشا

وزامت نوال:

- بقى أنت تفضلى تهرجى مع البنات.. وتفتكرى الصلاة فى الآخر؟

اسمعى ضمى ذنب الفرض ده على سيئاتى ونامى انت للصبح..

ولم تستطع اجلال أن تنام .. فهى تشعر بالذنب بعد أن استمعت إلى الحكايات المثيرة بل وساهمت فيها وقد علموها فى الجمعية الدينية التى تنتمى إليها أن رسالتها فى هداية البنات إلى العبادة والصلاة..

ولكنها لاتدرى سراقبالها على مثل تلك الحكايات.. رأحاديث الحب والزواج.. حتى لتحس أحيانا بجسدها مثقلا بالذنوب والرغبات..

ولم تكن لتستطيع أن تقف هكذا أمام الله.. وهى دائما تنتظر فى المساء.. تنتظر حتى تنام الزميلات ويخلص جو الغرفة من حمى الأحاديث والأحلام.. تنتظر فى جلبابها الأبيض الطويل فهى تشعر أن هذا الجلباب يحميها.. ويخفى رجفة جسدها عنها وعن الناس.

لفت إجلال الطرحة حول رأسها وكادت تتعثر فى جلبابها الأبيض وهى تفتح الباب بحذر حتى ترى الطريق إلى سجادة الصلاة..

لكن شعاع النور نفذ إلى عين نوال التى ما كادت تغفو حتى فتحت عينيها لترى.. شبحا أبيض يقف فى مواجهتها بالقرب من الباب.

وصرخت .. لابد أنه حسن الجناينى .. جاء ليعتدى على واحدة من البنات.

وارتفع صراخها: حسن الجناينى .. حسن الجناينى

وسرت الصرخة من حجرة إلى حجرة.. حتى اشتعلت الأدوار الثلاثة كلها بالصراخ

وإجلال تقول بضعف:

- ده أنا قايمه أصلى العشا

وأضيئت الأنوار وسألت المشرفة.. ليه بتقولوا حسن الجناينى..

وتدلت الرءوس .. واكتست الوجوه بحمرة الخجل.. لابد دأنه كابوس.

الحريق

(القاهرة.. حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢)

صالة الاكل التى تقع فى الدور الأرضى من بيت الطالبات دائما باردة ودائما تفوح منها رائحة المفارش والفوط البيضاء المشبعة ببقايا الطعام..

وهذه الصالة الرطبة بالذات تنقلب إلى خلية نحل ساعات الأكل وتمتزج بها الأنفاس بأبخرة الطعام الساخن ويكثر فيها اللغط والضحك والضوضاء.

وكانت البنات تطلق ألقابا على الخضروات تتصاعد بعدها الضحكات ولاتلبث أن تقول أحدى الجريئات تعليقا مثيرا فيحدث دويا بين الصفوف وتسرى التعليقات والقفشات والأصوات المتقطعة ..آه.. وياخبر .. وايه ده!!

- طيب ناولينى الحشيش ده يانانا..

والحشيش هو أى طبيخ لونه أخضر، ملوخية، سبانخ، أوخبيزة كله فى الحقيقة كان زى بعضه..

ويتمطع جسد شاب ثم تقول صاحبته أما «السوسو النهاردة جنان».

والسوسو دى هيـه الفاصوليا بعينهـا.. لكنها هنا على مـائدة البنات تثير الهمسات ومزيدا من الضحكات.

لكن الصمت ثقيل هذه المرة والوجوه كلها ترتسم عليها معالم الرهبة والقلق..

عدن جميعا من الجامعة بعد أن أغلقت أبوابها فى وجوههن ووقفن طويلا أمام الاسوار العزيزة يستمعن إلى آخر الأنباء الخطيرة التى تنطق بها حتى الجدران.. والطلبة ثائرون يهتفون من أعماق نفوسهم كلهم يطالب بالسلاح.. بقتال الانجليز الذين أغاروا على الاسماعيلية.

وخشى الخائفون من صراخ الشباب.. من الفرن التى ينصهر فيها الرجال.. لذلك أغلقت الجامعة.. لكن الشباب ينظم صفوفه ليزحف إلى القتال..

وماذا تفعل البنات؟

سؤال ظل يدق الرءوس طوال ساعة الغداء..

وقالت هيام:

ـ مش أحسن نسافر لأهلينا.

وردت نوال:

ـ أهلنا كلهم فى مصر.. الخطر فى القنال معناه خطر علينا كلنا .. وفى بيوتنا كلها

ـ طب نعمل أيه؟

ـ لازم نعمل حاجة.

ـ نجمع فلوس نشترى بلوفرات للفدائيين

ـ لكن المعركة أسرع من كده..

وجلست نوال تمضغ الأكل بلا حماس.. ووجهها الأسود زادت قتامته وتقلصت شفتاها الغليظتان وتنهدت:

هوه معقول نسيب مائة شاب يدافعوا عنّا،.. ويموتوا هناك لوحدهم لازم نعمل أى حاجة .. نروح معاهم .. نموت احنا كمان يمكن ضمير العالم يتحرك.

وكان صوتها يدعو للتأمل والتفكير.. ونفس الرغبة تجلجل فى أعماق الكثيرات وساد الوجوم والصمت مما جعل سعادتكاد تجهش بالبكاء فهى لم تتعود مثل هذه المواقف الجادة.. وحاولت أن تخفف من حدة التوتر فقالت لنوال: ـ وكن يدعونها لسمرتها الشديدة ـ ملكة جنوب أفريقيا ـ قالت لها بصوت يغلب عليه التهوين:

ـ طيب وأنت متحمسة كده ليه.. هيه يعنى بلدك؟

ولم تلتفت إليها نوال وأن التهب الوجه الأسمر حتى اضطرت صاحبته أن تضم شفتيها بصعوبة وزادت حدة الوجوم وألقت كثير من البنات نظرات القرف والضيق إلى سعاد.

وغزا الفتاة شعور مؤلم بالتفاهة.. ولم تعرف ما الذى تجمع فى صدور البنات اليوم حتى جعلهن هكذا صورة من الجد والاعراض عن أى شعور بالمرح!

وهى ما الذى يمكنها عمله؟ لاشىء..

ستصعد البنات إلى الصالة الكبيرة الآن حول الراديو العتيق ولن تستطيع مواجهة واحدة منهن.. وخير لها أن تبحث عن صاحبها «فوزى»

فوزى فقط هو الذى يحيل تلك الكآبة إلى مرح وبهجة.. معه تشعر إنها سعيدة وراضية وهو لايطلب أكثر من حبه ومن وجوده معها دائما .. وهى لاتهتم بشىء .. لا بالعلم ولاالجامعة ولا وجودها فى بيت الطالبات .. فوزى هو حياتها.. غدها ومستقبلها.

ولكن أين يمكن أن تجده الآن..

فى ملاعب الكلية كعادته.. ولكن هل يذهب إلى الملاعب اليوم أيضا؟

فى بيته ؟ إنه غير موجود

أين يمكن أن يذهب فى هذا اليوم العصيب..

وما الذى جعل اليوم رهيبا هكذا.. ألا لعنة الله على الانجليز..

إنها لم تكن تفكر فيهم قبل ذلك ولاتهتم باخبارهم .. ولكنهم استطاعوا أن يشغلوا ذهننا رغما منها .. وأن يقلبو الجو حتى فى بيت الطالبات . أين ذهب صاحبها ؟ والراديو يذيع أنباء القتال .. أنباء الشبان الذين يحاربون الانجليز.

ماذا؟ ما هذا الخاطر الغريب.. حقا كل الزملاء هناك.. كلهم هناك فى المعركة.. حول القتال.. أيمكن .. أيمكن أن يذهب معهم.. وهل .. هل يموت أيضا؟

وارتمت على الأرض بلا رغبة فى الحياة..

ولم تستطع أن تنطق بهذا الاحتمال.. إنما أجهشت بالبكاء والبنات أيضا كن يبكين حول المذياع .. وهو يئن ويئز ويخرج أنباء مفجعة.. ودخلت آمال مندفعة من الباب تصرخ وتنادى الزميلات .. وكانت نوال أولى من أسرعت بالاندفاع .. وهى تقول : ايه.. فيه ايه

وبدت آمال كأنها خارجة من الجحيم..ـ البلد بتتحرق.. البلد أكلتها النار..

وارتفعت أصوات البكاء.. وهرعت البنات إلى السطح ونوال وفى طريقها اصطدمت بسعاد مكومة بجانب التليفون فاحتضنتها تجرجر معها سعاد .. كانت السماء ملفوفة بسحاب أسود كثيف ورائحة الحريق تغطى كل شيء وألسنة النار تتلوى.. وقالت سعاد:

ـ آه يا خسارة ياترى أنت فين يافوزى.. كده برضه القاهرة تتحرق..

وبكت آمال:

ـ القاهرة الجميلة.. ومنين النار دى.. عملوها ناس مننا .. ايديهم سمر زينا..

وأمسكت بيد نوال.. ونظرت إليها .. ووجدتها واقفة كالتمثال ولهيب النار ينعكس فى عينيها وسواد وجهها.. وتملكها الرعب.. وعاد الخوف إلى سعاد.

ـ نوال مالك عاملة كده .. قولى أى حاجة..

واحتضنت نوال الصديقات..

- ما يصحش نخاف.. دى نار بصحيح.. لكن كان لازم تولع علشان نعرف كل الأخطار .. وكل الأعداء..

مانخافوش يا بنات.. بعدها بيجى النور.

لقاء إنسان

ذلك الصيف.. لم أكن أكثر من طالبة بائسة أثقلت عليها الامتحانات وأرهقها الحر والضيق من المشاكل.

كان الشارع هادئا ولايكاد يمر فيه أحد.. والنوافذ كلها مفتوحة.. لكن الحر ثقيل والأنفاس لاهثة والبنات أمام الكتب تلتهم السطور ويلتهمها الضيق والحر والرغبات الدفينة فى النفوس.

وكنا نعمل طوال الوقت وتعذبنا فكرة الامتحانات المقبلة.. ولم يكن أمامنا من وسيلة للترفيه سوى النزهة ساعة الاصيل على شاطىء النيل القريب..

كانت الجولة ممتعة والهدوء يخدر نفوسنا.. ومنظر العوامات الراقدة بدلال بين أحضان النيل تسرح بخيالنا المكدود وتسرى عن أعصابنا المشدودة.

دائما أحببت هذه الساعات .. لكنى الليلة راغبة عن مصاحبة البنات.. أريد أن أبقى وحيدة.. وحيدة مع نفسى ومشكلتى التى يجب أن أجد لها حلا..

أن عقلى يلوكها منذ أيام.. وعيون المشرفة الملحة المتسائلة تزعجنى وتجعلنى أكاد أهرب من الحياة.. والبنات تعلق بمرح ودعابة على شرودى وسرحانى .. ولاشيء أمامى سوى المشكلة الخالدة وهى قلة النقود.

لم تأت من البلدة النقود الكافية لمصاريف بيت الطالبات.. ومر من الشهر نصفه الاول ولم أدفع شيئا.. وتمزقت وجنتاى من سياط نظرات المشرفة.. وأصابعها القاسية تنقر باب حجرتى كل ساعة تسألنى هل وصلت النقود؟

وأنا أعتذر مرة.. وأخجل مرات.. ثم ألعن مصلحة البريد التى تعطل وصول الخطاب الموعود وعلم الله أنها قد تكون المرة الأولى التى تظلم فيها مصلحة البريد. فقلبى يحدثنى أن الخطاب لن يأتى وأن أبى العجوز المسكين قد عجز عن تدبير الأمر وانزوى فى ركن بعيد من منزلنا الصغير يدعو الله أن تنفرج هذه الازمة .. وأمى تجلس غير بعيد منه تتصاعد زفراتها الباكية إلى السقف.

ودرت فى حديقة البيت العارية.. أن أرضها الرمادية وحشائشها الجافة تبعث فى نفسى كآبة ضيقا.. والبيت كله يبدو وكأنه مهجور.. وأنا وحدى أتسكع هنا وهناك ويدور عقلى حول المشكلة.. ولم أعد أستطيع المذاكرة أو التفكير فى الامتحان.

وضقت بالبيت وبالحديقة.. والمشكلة .. أمامى ساعة كاملة حتى تعود الزميلات من الخارج.. ساعة كاملة فى القاهرة التى أكاد لا أعرف منها شيئا .. كيف سأحتمل صحبة نفسى يجب أن أتحرك الآن.. أن أخرج بأى شكل.

سأذهب إلى البنات.. أبحث عنهن .. أو أنتظر هن هناك على المقعد الحجرى بجانب الشاطئ..

واسترحت عندما رأيت المياه أمامى.. خيل إلى أننى أتمنى أن أنزل فأعبث فى الماء بأقدامى وأدع التموجات الرطبة تداعب أصابعى وأنا أستسلم لعناقها ونعومتها تماما.. ولكن هل يبدو ذلك سخيفا؟

الاسخف من كل ذلك أن أمتنع عن الخروج مع الصديقات .. ثم أعود للجلوس وحيدة أنتظر هن ويبدأ احساس بالقلق يتسرب إلى نفسى ويدفعنى للعودة مرة أخرى إلى البيت .. لكن جسدى ظل ملتصقا بالمقعد الحجرى حتى عندما أحسست بإنسان يقترب منى ورفعت عينى إليه.. ولا أدرى لم شعرت بمودة جارفة نحو وجهه الطيب العجوز.. وددت لو ألثم تلك الذؤابات البيضاء..

وهز رأسه لى.. وكأنه يستأذننى فى الجلوس بجانبى.. وابتسمت وأنا أرحب به وأدعوه للجلوس وكأننى فى صالونى الخاص القائم على النيل.

ولم يسألنى الرجل عن إسمى أو السبب الذى من أجله أجلس وحيدة هكذا ساعة الغروب.. إنما قال ببساطة..

- وماذا تدرسين؟

وأسرعت لأخفى بقعة الحبر فى أصبعى .. لكنه ضحك وهو يقول:

- منظرك يوحى بأنك طالبه.. أو على الاقل من ذلك الصنف الذى يفكر كثيرا وقلت بأسى: أنا لا أكف دائما عن التفكير.

وتنهد الرجل وهو يقول وكأنه يشد الكلمات من أعماقه

- التفكير مثل أمواج هذا النهر.. دائمة موجودة ومتصلة وتحوى الحياة كاملة..

ومرة أخرى أحس بمودة جارفة نحوه.. أريد أن أقول له كل شيء .. أن أفضى إليه بمتاعبى ومشاكلى كلها وقلت:

- ولكن إذا لم يصل التفكير إلى حل؟

- حل .. ؟ وكل الذى أمامك تعبير عن وصول الإنسان دائما إلى حلول.. أسمعى يا ابنتى.. مرات كثيرة جلست فيها أمام النهر العظيم .. كلى مشاكل وهموم والحياة كلها تضيق بى وتكاد تلفظنى..

وأتأمل تلك الصفحة الزاخرة التى تنساب تحت أقدامى بعمق وهدوء.. وأرى تلك الزوارق البيضاء الصغيرة لازالت تسير.. والصياد العجوز فيها يندفع نحو رزق بعيد.. نحو مصير مجهول وهو يغنى ويبتسم.. لاشيء يعطل إستمرار الحياة.. وأنهض لأواصل السير جديد.. لاشيء يعطل استمرار الحياة..وقفز السؤال على لسانى.. ولكن مشكلتى كيف أحلها من أين لى بالنقود ؟ من منقذى من نظرات المشرفة وعجبها من وأبى العجوز المسكين المرهق بالمسئوليات.. أنا أعرف أنه معذور .. وأن الحمل لديه كبير.. ولكن مادمت أعرف هذه الحقيقة فلماذا انتظر دائما المعجزة التى تأتينى بالنقود.

لم أترك العبء كله على أبى..

لم يصنع هو وحده المعجزات..

وأنا ؟ كيف لا أحاول أن أحصل على عمل يساعدنى ويعيننى على المضى فى الطريق.. صديقتى هيام.. ألم تقل مرة أنها تود أن أعطيها

بعض الدروس. لم لايكون لذلك ثمن؟ وبدأت الأفكار تغـزونى ومنهـا تتألق الحلول..

ونظرت إلى الرجل .. كان يستعد للنهوض.. وددت لو استبقيته.. لو ألثم تلك الذؤبات البيضاء وأمسك بيده المعروقة..

هل أقول له كم أحبه.. لكنه مضى .. دون أن أعرف حتى اسمه..

وقمت بنشاط كبير.. أضرب بقدمى حجرا صغيرا وجدته أمامى.. وظللت أدحرجه بمرح حتى وصلت إلى البيت..

وقفت بالشرفة أتلمس بعض النسائم المنعشة علها تقضى على الضيق الذى يرعى داخلى..

شعور هائل بالتفاهة يغزونى .. والبيت كله يبدو فى ناظرى كالاسطبل ترعى فيه مجموعة كبيرة من الابقار.. لقد ضقت بهذا العالم النسائى العجيب.. والبنات فيه لاتكف عن الحركة والشجار والضحك والحكايات المسلية..

وهن يمرحن بالداخل وتنبعث ضحكات وتأوهات.. وأنا أقف وحيدة بالشرفة والاشجار أمامى ساكنة والشارع هامد ولا ظل لحياة..

وفجأ دوت قرقعات عربة من آخر الطريق.. وتحول نظرى إلى الشاب الذى يدفع العربة الصغيرة وزجاجات البيرة تتراقص أمامه وهو يتمايل على وقع النغمات الصاخبة..

وابتسمت.. بل وكاد جسدى أن يتمايل هو الآخر.. ولكن ضاعت البسمه تماما وسرى فى جسدى شعور بالجزع والاضطراب عندما رأيت

العربة تنقلب فجأة وتهوى الزجاجات وتتكسر وتسيل الخمر على الأرض..

ومعها انسكبت دموع الفتى.. وانقلب يندب حظه ومستقبله الذى ضاع على الأرض والبيرة تزحف أمامه.. وفى زيدها يتخيل وجه صاحب المحل وهو يصفعه ويلقى به إلى عرض الطريق..

وكدت أبكى معه .. ماذا أصنع له.. أنه حتى لايدرى بى أو أننى أرثى له وأشاركه بؤسه وحسرته..

واندفع الناس من كل جــانب.. وازدحم المكان.. وضج الشــارع بالاصوات المختلفة وكلما وجد أحدهم زجاجة لم تكسر صرخ بفرح يشجع الصبى..

- قوم يا ابنى .. قوم.. اعدل العربية جت سليمة.. وبدأ قلبى يرقص مع كل صرخة فرح.. وأتلمس الفرحة على وجهه.. لكنه تائه وكأن الناس أمامه كلهم سكارى.. والشارع يميل..

وصرخ بيأس:

- هوه ايه اللى جت سليمه.. حتى لو نص العربيه سليم .. منين أجيب حق الباقى..

وامتدت إليه الايدى بكثير .. واعتدلت العربة من جديد .. وتأرجحت فيها الزجاجات السليمة .. وانحنى الشاب يمسح دموعه فى طرف جلبابه واندفع يسير..

وتفرق الناس.. وعاد الشارع هامدا ساكنا.. وبقيت وحيدة فى الشرفة.. أمام الزجاج المكسور.. والخمر الممزوجة بالتراب..

ومرة أخرى يرتفع داخلى احساس الضيق.. وأشعر فى فمى بمرارة الملل والوحدة.. ليتنى كنت بينهم فى الشارع .. ليتها ظلت هذه الضجة من المواساة والتشجيع.. أنا أيضا فى حاجة إلى من يواسينى ويأخذ بيدى وأنا أرى حياتى تتبعثر.. وتنسكب منى على الأرض مجرد عواطف وانفعالات لكنها تسيل وتزحف ببطء ثم لاتلبث أن تجف ويتبدد أثرها ولايبقى منها فى النفس إلا رنة حزن بعيد..

وغادرت الشرفة على عجل.. واندفعت نازلة إلى البنات.. .. بين تلك المجموعة لابد أشعر بالحياة.. ويستمد وجودى قدرة على النمو والانتعاش.

الجامعة

دقت ساعة الجامعة دقاتها التسع المعتادة..

وبدأت أمواج الطلبة والطلبات تتدفق ساعية إلى كلياتها المختلفة..

كان «أحمد» بائع الجرائد نشيطا فى عمله.. يناول كل واحد من زبائنه جريدته المفضلة.. أما الآن وبعد تلك الدقات التسع فهو يرتب جرائده وينتقى واحدة من الرزمة يمسكها بعناية فائقة ويقف يرقب نهاية الطريق.

وأقبلت «ليلى» من بعيد.. من طريقها المعتاد وكانت تسرع فى خطواتها لتلحق بالمحاضرة.. وقلب أحمد الصغير يكاد يرفرف بين جوانحه وهو يجرى ناحيتها ليعطيها الجريدة.. ولم تزد أن ابتسمت قبل أن تختفى وسط الجمع الكبير.

جلس أحمد على جانب الرصيف سعيدا باسما .. أنه ينتظر نفس اللحظات كل صباح وحياته محدودة بدقات تلك الساعة الكبيرة..

.. تدق التاسعة فيرى فتاته التى يحبها.. وتمر الساعات بطيئة متكاسلة حتى تعلن عن الثانية عشرة فيكون موعد اللقاء الثانى..

تأتى وتقف عنده ثم تتصفح المجلات وتنتقى واحدة وهى تبتسم له طوال الوقت.. وتناوله الثمن بعد ذلك.. ودائما تنتقى له عملات فضية لامعه.. وتترك له قرشا زيادة..

لم يكن يعرف الحب قبل ذلك فى سنوات عمره الاربعة عشر .. ولكنه لاشك يحب الآن.. انه يحب هذه الفتاة.. وهى تميل إليه حتما.. وإلا فلم اختارته دون باقى الصبيان بائعى الجرايد والمجلات؟ ولماذا تشترى منه بالذات وتبتسم له.. وتصر على أن يحضر لها الجريدة يوم الجمعة فى بيت الطالبات الذى تقيم فيه..

وهناك تستقبله برقة وتعطيه أشياء جميلة حلوى أو فاكهة .. ثم دائما القروش الجديدة اللامعة..

وبالامس أخبره سعد زميله أنه ذهب إلى السينما ورأى البطلة وهى تعطى حبيبها وردة كل صباح وبذلك عرف الفتى أنها تحب وتعجب به دون سائر شباب الحى.. وبنت الجامعة هذه .. ألا تحب؟

ألا تعطيه قرشا كل يوم.. قرش تعبر به عن الحب.. وما الفرق فى أن يكون ما تعطيه له قرشا أو وردة كما قال صاحبه! المهم أنها تعطيه شيئا..

وهو اليوم له معها شأن آخر..

أنه يريد منها إعجابا واضحا.. وحبا ظاهرا.. لقد أمكنه أخيرا شراء جلباب أبيض جديد.. لأنه كان يخجل فى الحقيقة من الظهور أمامها بهذا الجلباب الازرق الممزق الذى يكشف عن ساقية .. ويبديه صغيرا..

ولكنه أصبح شابا لطيفا بهذا الثوب الجديد.. ونسى الحرمان الذى فرضه على نفسه أياما طويلة وهو يضع القرش فى حصالته الصفيح حتى اكتمل له ثمن هذا الثوب.

وقف يرقب نفسه بعناية فى زجاج السيارة التى أمامه.. وأعجب بقامته الطويلة ولونه الاسمر اللامع.. تماما هو يشبه أبطال السينما وستكون له قصة أيضا..

ومنذ اليوم لن يعود الصبى الصغير الذى يقف أمام الجامعة وكل ما يفعله بيع الجرائد فقط أنه يحب .. وهو كبير.. وله مكان فى الحياة.

وهكذا ظل مشغولا بتأملات والوقت يمر حافلا.. مليئا بأصداء الشوق والترقب وأخيرا نبهته دقات الساعة وازداد حماسه عندما رأى عقاربها تتعانق فوق الثانية عشرة.

جاء موعد اللقاء الثانى.. وهب واقفا وجسده تتدفق فيه قوى نشاط رائعة.. أصلح الجلباب مكان جلسة الرصيف ورفع ياقته.. وأخذ يرقبها بين الجمع الكبير.

وتدفقت جموع الطلبة والطالبات وعيناه تسعان كل ذلك العدد الضخم وتحيط بالباب الكبير .. وأخيرا لمعت ملامحها وسط اللوحة الكبيرة.. واقتربت منه بعد أن تخطت البوابة السوداء.. لكنها لم تكن بمفردها.. كان معها شاب..

ومال الفتى يحدثها وكأنه يهمس فى أذنها أو يقبل أطراف شعرها المبعثر.. وهى تستمع له وتبتسم .. نفس ابتسامتها الرقيقة العذبة التى كان يظن أنها تخصه بها وحده..

وهو ألا تلاحظه.. ألا تراه.. حتى الثوب الجديد لن يلفت نظرها؟.

ومن يكون ذلك الشيطان الذى برز فجأة وأفسد عليه لحظة العمر التى ظل ينتظرها؟

ومازال الفتى يسكب حديثه الخافت فى أذنها.. ولازالت تنصت لهمسه ويضج فمها بابتسام..

ما فائدة الثوب الجديد إذا لم تلحظه.. ولم تعجب به.. أفندى سخيف يحول بينه وبين السعادة..

وهى تقف أمامه تماما الآن.. وتقلب فى المجلات.. لكن ذهنها يبدو غائبا عنه تماما.. لابد أن يحدث المستحيل حتى يسترعى انتباهها وينتزعها من حديث صاحبها وترى الجلباب الجديد.. وأخذت تبحث فى حقيبتها عن نقود .. وأسرع زميلها يقدم نقوده بحركة سريعة وباردة..

لكن أحدا لا يأخذها منه.. لايصدق.. إنها لن تدع رجلا غريبا يدفع النقود عنها.. وتلك اليد البغيضة الممتدة اليه لاشأن له بها.. بل ويبتعد كى يتجاهل هذه اليد.. وصاح به الفتى:

- ما تاخذ يا ابنى الفلوس مالك مبلم كده..

وتمايلت بالضحك وهى تقول:

- خد يا أحمد منه.. وخلى الباقى علشانك..

الباقى؟. يأخذ منه؟. وهى تبتعد .. تذوب بعيد وسط الشارع الملىء بالناس والعربات ويصاب أحمد بالدوار ما معنى كل هذا؟.. كيف تغيرت إلى هذا الحد.. تخونه أمام ناظريه.. وهى لاتزال تضحك..

وجلبابه الابيض..

ود لو يمزقه.. أو يدعه يتدلى إلى وحل الرصيف.. ما فائدته الآن.. وما جدوى شقائه.. ورزمة الجرائد متناثرة أمامه.. ولاتزال تلمع وسطها القطعة الفضية.. الخمسة قروش..

الإحسان الذى رماه إليه صاحبها..

وأمسك بها بين يديه.. وأسرع يطوحها بعيد بكل قوته لا انه لن يقبل أحسانا من أحد.. كان يحسب أن قروشها دليل الحب.. وهو يرفض الآن ذلك الوضع.. كان جالسا على الرصيف والشاب يمد يده إليه.. ثم يطوح له قطعة النقود .. يلقيها وكأنه كلب ذليل ينتظر عظمة..

وضحكتها هى .. واستهتارها هى تسأله أن يقبل أحسان صاحبها..

لماذا فضلته عليه؟.

وكيف أحبته؟. لأنه يلبس بدلة ويلمع شعره..

أم لأنه معها فى الجامعة؟

ويعاود ينظر إلى تلك القبة العالية والباب الحديدى الضخم الذى تردد من ورائه نفس الدقات الرهيبة.. العالية لم تحركه دقات الساعة هذه المرة.. فلقد كان لايزال يحدق فى الباب الكبير.

أول تجربة

ترددت الفتاة كثيرا قبل أن تدخل إلى تفتيش الأوقاف وأخذت تنظر خلفها بحذر وخشية أن تراها احدى الزميلات..

أو تخمن سبب دخولها إلى هذا المكان.

ولم تكن لتفعل عملا مشينا أو لايليق.. لقد أتت هنا لمجرد أن تقبض أعانة قررتها لها الوزارة لتعينها على تكاليف الحياة .. ولكنها كانت تجربتها الأولى على أية حال..

ولقد ظلت مترددة فى الذهاب أياما كثيرة إلى أن اضطرتها الظروف المحيطة بها أن تطرد عنها ذلك التردد وتقبل وجلة خائفة لتقبض الاعانة.

كانت تجاهد كل شهر جهادا مميتا حتى يكمل لها مصاريف الاقامة فى البيت وكانت زميلة لها قد أخبرتها بهذه الاعانة التى تمنحها الوزارة لبعض الطلبة.. وترددت كثيرا..

ولكنها أقبلت اليوم وفى خيالها الجنيهات أو مقدار السلفة التى ستحصل عليها هذا الشهر ثم تدبر المبلغ الباقى وتدفع الرسوم.

وحتى تتغلب على ترددها وخوفها ظلت تقنع نفسها بمنطق سليم...

لاشك أنها صاحبة حق على الدولة..

الدولة هى الأم الكبرى للأبناء..

وهى لاتستجدى صدقة أو هبة من أحد.. أنما هو مجرد قرض تتعهد بسداده عندما تنتهى من دراستها وتجد عملا لها..

ما فيها؟ .. لماذا تردد أو تخجل؟..

ألا تقترض الدول؟ الدولة الغنية تمنح المعونات للدول الصغيرة...

الاثنين جنيه مبلغ ضئيل حقا ولكنه ايراد ثابت على أى حال وستضيف إليه النقود القليلة التى تأتيها من بعض الدروس .

وبذلك تشجعت ودخلت وهى أكثر ثباتا وثقة... ولكنها عندما وصلت إلى حجرة الصراف اختفت فجأة كل الصور والأخيلة التى رسمتها ورتبتها.. وكانت تستمد منها الشجاعة بأنها صاحبة حق.

ولم تبق غير صورة واحدة بغيضة إلى نفسها.. صورتها وهى تقف أمام الشباك الحديدى وتمد يدها لتتقبل الهبة من الصراف..

وماذا تفترق عن أى شحاذ؟..

دلفت إلى الغرفة فى انكسار ذليل.. وشعور أسود من ذلك الصف الطويل من النسوة العجائز..

وفى أحد الأركان كان يقف بعض الشبان.. يبدو من هيئتهم أنهم طلاب أيضا.. وأدارت لهم ظهرها خشية أن يعرفها أحدهم..

ركزت بصرها على الصراف.. عجوز متهدل الملامح..يضع القلم خلف أذنه ونظارته السميكة تكاد تنزلق على أنفه..

وشاعت بين آثار الزمن على وجهه شبه ابتسامة عندما رآها داخلة.. ولم يلبث أن قال لها.

- تعالى هنا يا آنسة وانتظرى دورك.

وتحركت كما أشار.. ووقفت تلهث بعد أن حولت إشارته إليها كل الرءوس الموجودة...

وعاد الرجل ينظر إلى الصف الطويل الأسود الواقف أمام الشباك.

- مش حا أصرف لأى واحدة فيكم إلا إذا تعلمتم النظام يا غجر..

وارتعش قلبها.. إذن فهذه هى طريقة المعاملة هنا.. من الخير لها أن تنسحب بكرامتها.. وتبحث عن مكان آخر تحصل منه على الاثنين جنيه بدل هذه الاهانات.

وأفاقت على صوته موجها الكلام إليها:

- مش بيعلموك النظام فى المدرسة يا بنتى..

وأجابت بصوت مرتعش:

- آه طبعا..

- قولى لهم والنبى.. لحسن الستات دول واخدين على الهمجية.. على حمام التلات..

مش عارفين يتنظموا فى طابور..

ليك ثلاثة جنيه ليه.. أنت تعرفى حد فى الوزارة يا وليه؟

- ما فيش غير ربنا يابنى .. أصل جوزى مات .. وابنى عاجز.. وابنى التانى بعيد عنك وعن السامعين...

- طيب بس خلاص.. أنت حاتحكى تاريخ حياتك.. أنا كنت فاكر إنك تعرفى حضرة الباشكاتب ولا حاجة.

وفتح الدرج واخرج رزمة الجنيهات الكبيرة.. ونظر إليها وقد لمعت عيناه.. وأخذ يتنهد وهو ينظر إلى الصف الطويل المتشح بالسواد.. ماذا لو أنه يملك هذه الجنيهات وتختفى تلك الرءوس الحزينة من أمامه..

وضع رزمة الأوراق الخضراء على الرخامة أمامه.. وزحفت المرأة بوجهها داخل الفتحة الضيقة فصرخ فيها بمقت شديد.

- ابعدى شوية يا ولية.. دى أموال حكومة خلينى أعرف أعد..

ولحس أصابعه وهو يفرك طرف كل جنيه.. ولزقت الورقة الأخيرة وهو يصرخ:

- عدتم إلى سوء النظام.. والله أحلف ما أصرف لكم ولا مليم النهاردة.. هيه أنا حر.. وماحدش له عندى حاجة .. وآدى احنا سكتنا.

وهرولت النسوة إلى الصف من جديد وخيم صمت مقبض على الحجرة.. وتململ واحد من الطلبة وتقدم إلى النافذة وقال:

- تسمح تصرف لى أنا لحسن عندى محاضرات..

وتلقف الرجل كلماته: ياسلام يا أخى .. ايه الظرف ده.. هو أنا باعمل ايه بالعب.. عايز تعمل أفندى على..

- يا سـيـدى أنا بتكلم بالذوق .. أصلى مش فـاضى.. وبأقـول لك تسمح..

- مش سامح ايه رأيك بقى؟ اتفضل روح المحاضرات اللى وراك.. وتعـال بكره والله مـا أنا صـارف لك النهـاردة.. فكرك ايه.. ده أنا موظف كبير.. أد الدنيا .. وإلا أكمنك فى الجامعة..

وخرج الفتى مندفعا من الحجرة يلعن الحاجة والفقر والصراف .. ورمى الصـراف القلم من يده.. والتـقط رزمـة الجنيـهات فـألقـاها فى الدرج وأغلقه ثم جلس وهو يقول:

- فـور دمـى البنى آدم ده.. قليل الأدب صـحـيح .. أنا عـارف دول بيتعلموا ايه فى المدارس..

ومصمصت النساء شفاههن الجافة..

وعاود كلماته:

- شـحط ومش قادر يشتـغل.. الواحد كـان بيـأكل عيلة وهوه زيه.. وقال ايه تسمح تصرف لى قبل الستات...

وتسللت الفتاة خارجـة بهدوء .. قبل أن تنال نصيبها من لسان ذلك الصراف الكبير..

ولمحها تتحرك ناحية الباب:

- استنى يا آنسة.. يا سلام شوفوا حسن التربيـة.. شايفانى مشغول عايزه تمشى بهدوء عـشان تيـجى بكره مـثلا.. تعالى ياست.. خدى فلوسك.. اتنين جنيه.. استنى لازم أنقيهم لكم جداد.. لنج..

وأخذ يفرز الرزمة .. وكل دقيقة تمر تزيد من عذابها..

لن تعود إلى هذه التجربة أبدا..

فقط لو ينتهى هذا الموقف.. وتجد نفسها فى الخارج.. وطوت الورقتين بسرعة وهى تهمهم ببعض كلمات الشكر.. وخرجت مسرعة.. وصوته يلاحقها.

ـ أن شاء الله نشرب شربات النجاح..

انزلقت من على الرصيف.. ولكنها كانت تتنهد بارتياح .. واندفعت تجتاز الشارع إلى الناحية الأخرى حينما وجدت نفسها وسط شلة من الشبان..

وقال أحدهم: كنت فين يا جميل...

وقال آخر: عايز تسكن فى عمارات الأوقاف ولاتشترى أرض..

وكادت أن تضحك.. آه لو يدروا ماذا كانت تفعل..

وعن تجربتها المريرة فى الداخل.. لا أرض ولا عمارات.. لن تعود هنا مرة أخرى.

من كان يتصور أن إجلال البنت المتدينة التى ترتدى. الطرحة البيضاء والملابس الفضفاضة يمكن أن تعيش قصة حب؟..

ولكنها تعيش هذه القصة فعلا بكل دقائقها .. بكل انفعالاتها المرتعشة وأسرارها التى ترفض أن تبوح بها لأحد.

بل لولا قصة الحب هذه لما ارتدت إجلال الطرحة.. ولما أخفت جدائل شعرها الذهبى الجميل.. أو أثقلت جسدها بهذه الملابس المتهدلة..

حسين ابن خالتها هو السبب فى كل هذا..

كانت طفلة عادية.. كثيرا ما سمعت أمها تصفها بأنها «طالعة فيها من صغرها....»

وكانت تطيل الوقوف أمام المرآة.. وتجرب قلم الروج.. والملابس الضيقة.. وبدأت تحس بنبضات غريبة فى جسدها .. خلجات تدغدغ أعصابها وتجعلها تنظر إلى الغد بشوق وحنين وترقب مثير.

حسين ساعدها أيضا على أن تفهم معنى عمرعا.. وأن تترجم همسات قلبها وجسدها..

وأحبت حسين.. أحبته وهو يعطيها بعض الدروس الخصوصية .. وهو يرقب بذهول وغرابة التغير الذى يحدث لها..

أحبته وهى تثيره وتنثر شعرها بجانب وجهه فيغمض عينيه ويظل لحظات مرتبكا لا يستطيع أن يشرح لها تمرين الهندسة..

وكبرت .. لم تعد تقتنع من حسين بتلك النظرات الغامضة ،.. ولا التعبيرات الخرساء...

انها تريد كلاما آخر.. تريد أحلاما جميلة.. ولمسات تحيل الأحلام إلى واقع بهيج...

ولكن حسين كان فى عالم آخر... كان يبتعد عنها بدرجة مخيفة.

فهو يصلى ويصوم ويقضى أوقاته متعبدا.. أكثر من هذا.. أنه يحمل على النساء ويهاجم ذلك الاغراء العلنى الذى انتشر فى كل مكان...

حسين يبتعد عنك يا إجلال.. انه يقاوم سحرك... ويقاوم اغراءك ويلعن كل شئ بشكل صريح..

كيف تصل إليه..؟

وما رأيك يا حسين؟

«أنا لا أحب ما هو مشاع للجميع.. زوجتى لابد أن تحتفظ لى بكل كنوزها.. كل سحرها أراه أنا وحدى.. وأعيشه بمفردى..»

وذات يوم.. وقبل أن تلتحق إجلال بالجامعة وتأتى إلى بيت الطالبات كانت ترتدى الطرحة البيضاء وتلك الملابس الواسعة..

يومها زغردت الست أم حسين.. وقرأت الفاتحة.. واعتبر حسين وإجلال خطيبين وكان حسين يضحك وهى تسير بجانبه على شاطئ النيل وتحكى له عن الدهشة التى قرأها فى عيون الطلبة.. والأسئلة التى تلقيها عليها البنات..

حسين يضحك.. ويحس بالانتصار..

من يتصور أن لإجلال هذا الشعر الذهبى.. أو القوام الذى يتضاءال بجانبه كل اغراء هو وحده الذى يعرف سرها وهو وحده يملك الكنوز..

ويميل إليها.. وتنهمر كلمات الحب.،. وأشعار الغزل والاعجاب..

عاشقان مثل الكثيرين ممن يأتون إلى النيل كل مساء.. ولكن أحدا لا يشك فى أمرهما.. حتى المشرفة لم تسألها يوما أين كانت.. ولا من يكون الشاب الذى يوصلها كل ليلة إلى الباب..

إجلال بنت متدينة.. وهى قديسة فوق مستوى الشبهات.

وسارت إجلال بجانبه تكاد تتعثر فى جلبابها الطويل من فرط السرور والانفعال..

ماذا كانت تقول لحسين؟...

- متى تنتهى الدراسة ويكون لنا بيت جميل.. وأولاد..

- هذا البيت لم يعد يسعنى.. لماذا يجب أن تتركنى كل ليلة؟..

وتتسلل أصابع حسين يبحث عن يدها الصغيره فيضغطها بعنف.. وتتوقف قليلا قبل أن تبرز لها البوابة السوداء.. تقف بجانب الفيلا الأنيقة وتجذب نفسها عميقا فتصل الرعشة إلى قلبها ممزوجة برائحة الياسمين.. وسور الحديقة المظلمة بجانبها ترتكن عليه وتتوه فى عالم الرحلة الغامضة التى سيحملها إليها حسين.. يوما ما..

وبدأت تشعر كأن يدا خفية تشد طرحتها الى الوراء..تماما.. كذا سيفعل حسين .. ينزع عنها الطرحة البيضاء.. وزهرات الياسمين .. لن يغمض عينيه هذه المرة وهو يدفن وجهه فى ذهب شعرها..

ويتملكه العنف .. ولكن هناك من يشد شعرها حقا..

وطرحتها تنزلق بعنف..

وفتحت عينيها.. حسين؟...

حسين ينظر بفزع.. ويجرى إلى الرصيف الآخر وصرختِ.. حسين؟...

ماذا هناك؟ أنها لا تفهم جيداً ما حدث...

لحظة اختلط عليها الحلم بالواقع.. وحسين هناك بعيدا يشير إليها بحركات هستيرية ويطلب منها أن تأتى..

وأحست بيد غريبة تقبض عليها من الخلف ... واستدارت لتصرخ .. وضاعت الصرخة فى عواء الكلب....

كلب الحديقة الغامضة كان يقف على السور ويريد أن يفتك بها... هو الذى كان يشد الطرحة وينهش ظهرها...

وبدأت تفهم صوة ما حدث...

هكذا ،.. حسين يطلب منها أن تأتى... بل هو يحاول أن يعبر الطريق الآن.. بعد أن زال الخطر..

هى نفسها لا تعرف لماذا يقف الكلب ساكنا.. لماذا كف عن العويل.. الكلب ينظر إليها فى سكون.. وكأنه أحس بثقل الموقف.. بأن شيئا غريبا يحدث الآن..

وحسين يقفز مكانه على الرصيف كلما مرت سيارة مسرعة..

ومازال يأتى بتلك الحركات المضحكة...

وشعرت إجلال بأنها تريد أن تضحك فعلا... لا شئ يثير الحزن ولا الرثاء ... بل هى تضحك وهى تنزع طرحتها قبل أن تعبر بوابة البيت.. ستكون المرة الأولى التى تدخل على الجميع وشعرها عار..

ونظرت على الرصيف المظلم...

اغمض عينيك يا حسين طويلا.. لاننى سانثر الذهب على كتفى ... وأنت تؤذيك دائما الأضواء.

الامتحان

كان الزهر قد بدأ يتفتح فى لون أبيض مشبع بالحمرة.. ثم بدأ اللون الأحمر يغزو الأزهار كلها فتبدو ملتهبة تنذر باقتراب موعد الامتحان!

وفى البيت الكبير كانت أعصاب الطالبات أيضا تلتهب.. وللامتحان فى بيت الطالبات مظاهر غريبة.. فالألوان تخف ظلالها من على الوجوه ويصبح الشعر القصير هو الموضة السائدة برءوس البنات، وتقل الهمسات بين الصديقات ويقل رنين جرس التليفون..

كل واحدة تنفرد بكتابها فى مكان بعيد.. فهذه تذاكر فوق السطوح، وتلك فى الحديقة ، والأخرى تكتشف أن الجلوس فى البانيو هو أروع طريقة لفهم الدروس فتغلق على نفسها الحمام وترفض فتحه مهما كانت الظروف أو الأسباب.

وبمرور الوقت تصبح هذه الأماكن كالمواقع الحربية، يحرم الاقتراب منها إلا باذن أو بعد تبادل تأشيرة المرور.. وكثيراً ما أدى التنافس على الفوز بهذه المناطق إلى معارك تضفى بعد التغير والجدة على أيام الامتحان..

وفى إحدى حجرات البيت ارتفع غناء ابريق الشاى،، ومن حوله كانت ترقص «هيام».

وهيام لم تكن تهتم بالامتحان.. بل هى تؤكد لكل من تراه أنها سعيدة بهذه الأيام لأنها تفقد شهيتها للأكل وبذلك تساعد على رشاقة جسدها ثم هى تظل تلعب طوال العام .

وتستذكر مع البنا ت أسبوعا أو أسبوعين وتنجح فى حين تفشل كثير من الغبيات اللاتى تضيع منهن الحياة فوق سطور كتاب.

وتدور هى فى الحجرة تضيق بالوحدة وبحصار الصمت الملتف حولها فتقرأ بصوت مرتفع وتقوم بحركات تمثيلية تثير ضحك الزميلات أو اشجارهن ومع ذلك ظلت تواجه الوحدة فى حجرتها دائما بعد أن تهرب منها كل البنات..

وتقنع نفسها بعمل الشاى.

وتطل برأسها من الشباك مناديه صديقتها فى الطابق العلوى..

ـ نوال .. نوال أعملك شاى ؟

ـ طيب بس على شرط ما تحاوليش تعطلينى قبل ما يخلص.. وتمد هيام بوزها لضياع فرصة الكلام.. ثم تفرك يديها بفرحة وكأنها عثرت على فكرة مدهشة وتبرز رأسها من الشباك من جديد وتسأل نوال:

ـ عايزه شاى والا كوكتيل؟

وتضحك البنات.. فهيام مشهورة بالكوكتيل.. وهو يتكون من خلاصة غليان نصف باكو من الشاى مضافا اليه ملعقتين من البن مع إضافة قليل من النعناع..

تقول هيام: إن نصف فنجان من هذا الكوكتيل العجيب كفيل بشد الأعصاب مدة ثلاثة أيام، وطرد شبح النوم نهائياً من عيون البنات الكسالى أو العيون التى أنفقت معظم العام فى العبث والشقاوة، وفوق هذا كله فهو مفيد للرجيم.

وتتهافت البنات على المشروب السحرى، وتنفق هيام نصف وقتها فى صنعه وتقديمه.

وفجأة انقطعت ثرثرة هيام.. وصمت أبريق الشاى فى حجرتها وتعجبت البنات وضقن بلحظات الصمت الثقيل لا تقطعه نكتة أو حكاية من هيام.

ولكنها جاءت ساعة الغذاء تقول: إن شيئاً هائلاً وخطيراً سيحدث عند الجيران.. لقد سمعت أن «تيتى» ابنة جارتهم ألفت هانم ستتزوج، وأنها رأت العريس وهو فتى أسمر طويل لا تستحقه تيتى النحيلة الشاحبة.

وتدافعت البنات إلى حجرة هيام لشرب الشاى ثم سماع فاصل من تلك المسرحية المسلية التى تدور فى البيت المقابل.

كانت ألفت هانم تسكن فى الفيلا المواجهة لبيت الطالبات.. وقد تعودت أن تجلس معظم وقتها فى الشرفة وتصرف كل أمور البيت من على كرسيها فى هذه الشرفة.

انها تصرخ فى الطباخ أن يكتفى بشراء رطل واحد من اللحم.. وتصرخ فى البقال القريب أن يرسل الصابون و «الفيم».. وتنادى على زوجها محذرة ألا يعطل العربة لأن لديها موعدا مع الكوافير.. وأخيرا تجلس إلى ابنتها تيتى الجميلة المدللة.

وكان حديثها يصل إلينا واضحا جليا بل وكنا نعرف معها كل دقائق البيت.

وكنا عندما نلتقى ساعة الأكل لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من تبادل آخر الأنباء. فتقول آمال أنه سيقدم لها الشبكة هذا الأسبوع، وتؤكد نوال أن ألفت هانم ترفض أن يكون المطبخ ضمن الجهاز.

ثم تهبط علينا هيام معلنة أن الخطبة تتعثر وأن العريس رفض تجهيز المطبخ.

وتسير مباحثات الشرفة ببطء إلى أن يتم الاتفاق.

ثم تقفز مشكلة الستائر.. ومن يجب ان يشتريها لقد رضى بالمطبخ من أجل عيون تيتى لكن الا مسألة الستائر هذه..

ويقول العريس مستحيل

وتزداد حدة الخلاف والنقاش وتتفتت أعصاب البنات.. والأيام تمر والأيام الرهيبة.. أيام الامتحان .. تدق الأبواب.

قالت هيام أخيراً أن الأمور قد سويت وكل شئ سيغدو هادئا فى الميدان الخلفى.

وجاء الغد فرأينا الفيلا تزدان بحبال الكهرباء.. وخفتت أضواء بيتنا ونحن نهجر الكتب ونرقب بيت العرس السعيد.. أن تيتى تتزين فى حجرتها.. وفى الدور الأول يجلس عريسها قلقا متلهفا..

وألفت هانم تتقبل التهانى وتختال كالطاووس بين الورود.. ولا يزال صوته يجلجل ويصيح.. والموسيقى تصخب وتدق رءوس البنات المشحونة بالعلم..

وبدأنا الانسحاب من النوافذ والعودة إلى الكتاب والسطور السوداء.

وضعت نوال نظارتها على عينيها وهزت كتفيها وهى تقول: وإيه يعنى.. دى بتودع حياة تافهة إلى حياة أكثر تفاهة..

وتنهدت سعاد وهى تقول:

ـ أبداً والله.. دى محظوظة.. تخرج من حياة ناعمة إلى حياة أكثر دفئا ونعومة أنها لم تجرب أبداً الشقاء..

وقامت نوال تستقبل بحماس آخر أنغام الفرح الخافتة.. وفجأة سألت اين هيام.. ونادى الجميع على هيام.. ولم ترد.. كان شباكها مغلقا ومن خلفه يأتى نشيج مكتوم..

وتساءلت سعاد.. بتعيط ليه هيام؟.. دى عمرها ما خافت من الامتحان..

لم تكن سعاد تعلم أن فرح الجارة.. هو الامتحان الذى تجتازه كل البنات !

المسافة

كنت أسير.. والزحام من حولى كبير.. والوجوه تعبرنى دون أن ألتفت اليها فأنا أخاف الزحام.. أخشى أن أضيع فى ذلك الشارع الكبير.. قبل أن أصل إلى موعدى فى الجريدة

وحاولت أن أحلم فبعد قليل سأعبر ذلك العالم السحرى.. وتحتضن عينى تلك المطابع الهائلة التى منها الحروف تسيل والكلمات تمتلئ حياة..

وأنا .. متى تكون لى كلمتى.. متى أجد أفكارى تخفق على الورق.. لقد شحنتنى التجربة وفاضت بها نفسى.. تجربة العيش فى تلك القلعة التى تسكنها البنات.

صباح أمس وأنا أرى ذلك القطيع الهائل.. ألوان من الخبث والمرح والتمرد.. ويمتلئ قلبى بالحماس.. وأجد فى المسير إلى موعدى مع الكاتب الكبير.

ولكن متى بدأت معرفتى به؟

نذ سنوات .. منذ سنوات وأنا أرى اسمه منقوشا على صفحات الجريدة التى يحملها أبى وتعلمت عيناى أن تبحثا عنه دائما .. وأن تقرأ له ..

وذات يوم قرأت قصة له .. قصة حب بطلتها امرأة باعوها لرجل غنى .. استطاع أن يمنحها كل شئ الا الحب ..

وفجأة عثرت على الحب .. وألقت اليه بكل نفسها .. بكل كيانها المحروم وذرات حياتها الجافة الماضية وكان لابد أن تترك الزوج ..

ولكن الحبيب يتردد فى الإرتباط بها .. أنه لا يثق بأنها اختارته بنفسها وأحبته بأرادتها، .. ومن يضمن له أنها لن تخونه أيضا .. من يضمن مستقبلها معه كامرأة فاضلة؟ ..

ويقف الكاتب فى القصة عند هذا الحد .. ويدعو القراء إلى أن يقولوا رأيهم .. أن يحددوا القيم فى مجتمعنا ..

مجتمعنا يمزقه اختلاف الآراء والعقائد ..

وأحسست أنى مدعوة لأن أقول رأيى .. وأحدد جانبا من أفكار مجتمعى ..

راعنى الظلم الذى وقع على المرأة .. وموقف الرجل المتردد، وكتبت بسذاجة فتاة صغيرة .. وحماس قلب برئ .. لا أذكر بالضبط ماذا قلت .. ولكنى أعرف تماما أنى دافعت عن الحب .. دافعت عن الحب بحماس وعنف وحنين.

ودرت فى دوامة حياتى أدرس وأشقى .. أهرب من قسوة الواقع ،، من الأتياب التى تعذبنى وتشعرنى أن وضعى فى الحياة هين وصغير ..

أهرب إلى الرغبة فى التمرد.. فى أن أقفز من على رصيف الحياة أو هامشها وأن أدخل إلى قلبها.. إلى قمة الصراع فيها لأصنع حياتى وأعيشها..

نسيت كل شئ عن القصة..

عن البطلة حتى عن الحب الذى دافعت عنه..

وذات صباح وأنا أرقد فى سريرى وزميلتى فى الحجرة ترتب سريرها بحماس شديد.. وأنا أتأملها .. أتأمل سمرتها المشتعلة .. وكلماتها الحادة التى تقذفنى بها من بين الأغطية والوسائد وكلها تتحدث عن كسلى..

وأمسكت بالجريدة وعيناها تجريان على سطورها بسرعة أيضا.. ثم فجأة صرخت..

ـ أنت متى قلت هذا الكلام.. الحب اذن ما يشغل بالك ويجعلك دائماً فى هذا السرحان؟!

وقفزت من مكانى وخطفت منها الجريدة.. ورأيت اسمه فى أعلى الصفحة واسمى صغيرا وقريبا منه..

أنا.. ماذا قلت أين ومتى؟

بضعة سطور تشتعل بالدفاع عن الحب.. أو فى الحقيقة بالحنين اليه..

وامتلأت الغرفة بالبنات.. التففن حول الجريدة تمضغ شفاهن الكلمات ببطء وتتلذذ..

صخب وضجيج .. ضحكات وتأوهات تحيط بى..

لكنى أشعر بشئ مثل الخجل أو الخوف..

أتخيل عين أبى فى بلدتنا البعيدة وهو يلتقط الكلمات ويشك أنى.. أنا ابنته. .بجسدى الناحل هذا... ووجهى الشاحب أستطيع أن أعرف هذه الكلمات..

كلمة الحب لم تكن لتسمع أبدا فى بيتنا.. فمن أين لى أن أعرفها أو أكتب عنها؟

كم أخشى نظرته.. ورأيه.. لابد أن سيقسو على فى الحكم...

وحاولت أن أهرب من عينيه.. من شكه.. من الحكم الذى سيديننى به..

لقد عاش أبى حياتين..

حياة الأب المترمت المحافظ.. وحياة الرجل الذى عرف كل شئ.. وفعل كل شئ..

كل ما أريده أنا أن أعيش حياتى،..

حياة واحدة بلا زيف.. ولا خوف.

ألا يحق لى ذلك لأنى بنت؟

كنت دائما أفكر.. أين وجد ذلك الكاتب تلك السطور المشتعلة من خطابى انها تعبر عن ذلك الشئ الغامض الذى يعبث فى قلبى وكأنه بها كشف عن أعماقى وعرى عواطفى. أصبح الرجل صديقى. .أنا لا

أحاول أن أعرفه أو أحدد صورة له.. كلماته فقط هى التى تربطنى والخيوط التى ينسج من أجلها تلك الكلمات هى التى تبهرنى وتجذبنى إلى أفكاره.

وذات يوم.. فى وقفة لى على شاطئ البحر.. على صخرة بعيدة تذكرت تجربة التعبير الأولى.. وكنت ساعتها أحس بوحدة قاتلة.. بأمواج تتصاعد من قلبى ويتصاعد دخانها مشبعا بالحيرة والقلق إلى رأسى.

وجلست أعبر عن هذه المشاعر الثائرة.. وعدت أحتضن الورقة والقلم وكأننى حققت عملا عظيما.

ووجدت صديقا لى فى هذا العالم الكبير.

وعدت لأ تذكر صديقى الكاتب.. لماذا لا أرسلها اليه؟.. وبعد أسبوع .. أسبوع واحد وأنا على نفس الصخرة والجريدة فى يدى منذ أكثر من ساعة وأنا أحملق فى الأمواج وأخيرا قلت اقرأ جريدتى.. ووجدت بها كلمتى..

هذا الرجل .. لقد أحس كلماتى.. عرفها.. وهو بذلك يعرفنى أيضا.. وينتشلنى من الضياع.. من ان أضل الطريق..

وتعودت أن أكتب كلما أحسست بحاجة إلى التعبير... كلما هربت إلى نفسى أتأمل قسوة أبى وضعف أمى.. وذلك العدد الهائل من البنات أمثالى.

حاجتى اليه.. كانت حاجتى إلى إنسان.. أريد أن أعرف رأيه فى أشياء كثيرة.

وجاءتنى سطوره دافئة حنونة..

قال: أنه كان يخشى أن أكتفى منه بأن ينشر بعض كلماتى ولكنى - كما توقع - ذات طموح وأريد المزيد.. لكن ما أعبر عنه إلى الآن لا يزيد عن صرخات روح هائمة بدأت تنظر حولها وترفع ناظريها إلى السماء والنجوم وتسأل كيف ولماذا؟

وهى فى تساؤلها ستصل يوما إلى الأرض.. إلى الصخر الذى تقف عليه.. ثم تحاول أن تجيب.. أن تحدد معنى لوجودها وحياتها..

وبدأت أشعر بضآلة الأفق الذى كنت أحلق فيه..

نعم كنت خيالية حمقاء.. كيف لم أسمع أنين الناس من حولى؟

وزفرات أبى من قسوة تكاليف الحياة..

ودموع الأم التى لا تملك أن تجيب رغبات الأبناء.. كيف ولماذا؟

وكبرت معى الأسئلة.. وبدأت أبحث عنها فى الكتب.. وفى تجارب الآخرين..

ماذا أعددت.. وماذا حققت من تجربة وجودى..

ومرة أخرى أكتب اليه..

وقال النقاش لا يمكن أن يستمر بالرسائل ان التقاء عقلين عمل فنى كبير.. فلماذا لا تجيئين؟

واحتوانى الشارع الكبير.. وأنا أسعى إلى الموعد ونفسى مليئة بالحماس وقذفتنى الأمواج المتدافعة فى الطريق حتى وصلت إلى مبنى الجريدة .. ووقفت مترددة أمام باب غرفته.. لكن يدى أنزلقت على السطح الخشبى ودفعته بهدوء....

ولم أجد أحدا بالغرفة.. فدخلت وأخذت أتأمل جوانبها.. وتوقفت فجأة عندما لمحت ابتسامة فى الركن..

حقا.. لم ألمح الوجه.. ولا المكتب.. أو الجسد المختفى وراءه...

لا شئ سوى ابتسامة كبيرة وساخرة..

لماذا تسخر متى ابتسامته ورفعت عينى إليه؟ التقيت بعينين نافذتين كانتا تتأملان حركاتى منذ أن دخلت وجلست...

فقالت ابتسامته... تكلمى..

قلت بخجل. لم أكن أتوقع وجودك فى هذا الركن.. وسألتنى عيناه.. ثم ماذا؟

- ومع ذلك عرفت أنه أنت.

وبدأت أسمع صوتا عميقا.. من بين الشفتين.. من شبح الابتسامة الساخرة التى لا تزال على جانب الفم.

- أنا عرفتك منذ اللحظة الأولى.. جئت تماما كما توقعت..

ومر فى رأسى تساؤل خبيث ولماذا تصورنى بهذا الشكل!

القوام الناحل.. والوجه الشاحب..

وقال وكأنه يتابع ما مر برأسى:

- شكلك لطيف .. ومنظرك يكمل صورة الشاعرة التى كنت أرسمها لك..

عجيب هذا الرجل هل يستطيع أن يقرأ أفكارى؟ وهز رأسه كأنه يوافق.

- أنت مثل الكتاب المفتوح أمامى.. أقرأ من صفحاته بضعة سطور.. لكنى ألفت الكتاب والصفحات وعرفت دائما ما تخبئه السطور.. ولازالت أمامى صفحات كثيرة بيضاء تصنعينها .. وتنسجينها حياة!

ولكن ماذا كنت أنا بالنسبة اليك؟

ماذا كان بالنسبة لى؟! لم يكن أكثر من معنى.. أنا لم أرسم له صورة مطلقا.. بل لم أتخيل له ملامح مثل كل كائن بشرى .. شغلتنبى المعانى عن الجسد والشكل..

لم أكن أعلم مثلا أن نه هذه العيون الصغيرة المتسلطة.. ولا تصورت تلك البسمة الساخرة.. كان كلامه على الورق يحوى دفئا وحنانا.. واهتماما بالآخرين.. وسطوره تضج بالحكمة والمسئولية التى تصنعها الكلمات..

وكنت فوق هذا.. أظنه أكبر بكثير..

وقال: أنت فى العشرين.. وأنا أقترب من الأربعين.

أظن هذا فرقا كبيرا يجعلنى أصلح أبا لك.

وأسرعت أجيب: لا يوجد أبدا مثل أبى.

أنت.. أنت معنى كما قلت لك.

وضحك طويلا وهو يقول:

- لكن المعنى تجسد أمامك واكتسى لحما وعظما فماذا تريدين أن يكون؟.

- أنت.. أنت أستاذى.

ومرة أخرى تعود ضحكته.. نفس الضحكة الساخرة هذا الرجل لا يقتنع أبدا.

وعاد يقول:

- اسـمـعى يا آمـال.. أنا لا أومن بالاقطاع.. لا فى الفن ولا فى الحياة.. أنت فنانة.. وأنا فنان.. كلانا خالق صغيرا كان أو كبيرا .. لذلك لا تجوز صفة الأستاذية هذه التى تريدين دمغى بها..

لماذا تهربين من الصداقة مثلا؟ هل تفزعك؟

لنكن فقط أصدقاء.

لنكن أصدقاء...

قال (أحمد عزمى) لنكن أصدقاء..

وهل تفزعنى الصداقة؟.

أشعر أنى صغيرة أمامه.... وأننى بلا تجارب.

لقد شربت منه إيمانى بوجودى.. بقدرتى.. بإنسانيتى

وكل القيم الجميلة التى كان ينادى بها..

لكنى أمـامـه الآن أحس أنه وإيمـانه بكل هذه الأفكار يؤمن أيضـاً بنفسه.. برجولته... بشخصيته المسيطرة....

وأنا دخلت المصـيدة برجلى.. أنا الآن تجـربة حيـة أمـامـه.. الكاتب فيه يريد أن ينتصر ... لكن الرجل يصر على النجاح أولا..

وأنا أخاف منه..

ولكنه قال لنكن أصدقاء..

وقـالهـا مـرة أخـرى... وهـو يـثـبت ثقبى عـينيـه فى عينى.. وارتعش جفنى..

أخاف منه وأحس أنه يغزونى.

- هل تخافنين؟

- كلا .... ولكنى كنت سعيدة وأنت معنى يظللنى. وأنت يد كبيرة تشق قبلى الطريق..

وأمسك بيدى:

- يدك صـغـيرة.. دعـينى أتأملهـا.انـهـا يد فنانة... وهذه الأصـابـع الشاحبة السمراء يمكنك أن تعزفى بها.. أنغاما أو كلمات..

لا.. لا تشديهـا .. دعيها بين يدى كى أعرف كيف تغفو الايدى الرقـيـقـة بين الايدى الكبيـرة الخـشنة.. لماذا تـهـرب يدك .. ولا تبـوح بشئ؟.

«دع يدى.. دع يدى.. لا تحاول أن تقرأها.. يكفيك قراءة الأفكار.. وتلك النظرة الثابتة لا تلقها على...

هى ليست رقيقة مثل كلماتك .. انها قاسية.. قاسية لا تكف عن البحث ومراقبة أدق الخلجات...

أنا لا أريد أن تهتز أعماقى أمامه.. أخشى قسوة الحكم فى عينيه.. أخشى الابتسامة الساخرة أن تستهين بى!

جئت إليه ليحدثنى عن أفكارى.. عن شخصياته التى يخلقها من الحياة.. ويهب لها الحياة..

وشددت يدى وأنا أهمس فى داخلى دعنى.. دعنى فلم أزل صغيرة عليك.

وترك يدى.. هكذا ببساطة..

انتهى من حكمه وعيناه تطلان على أعماقى.. وبسمته تضج فى جوفى..

أنت خائفة.. أنت صغيرة.. حائرة...

ولكنى قلت فقط لنكن أصدقاء.

«وما دمنا أصدقاء.. أظن لن يزعجك كثيرا أن نذهب إلى المنزل.. هناك يمكننا أن نتحدث بحرية أكثر عن الفن وعن الحياة.

لا داعى لان تحمر وجنتاك.. إذا كنت تخافين فلنذهب إلى أى مكان آخر..

وأنا لا أعرف ماذا أجيب،.. أنه يتحدانى.. أخاف.. أأنا ضعيفة إلى هذا الحد؟ انت واهم .. واهم،،

وهو، يعبث بمخاوفى ولكنه يسير بقدم ثابتة إلى منزله القريب!

لا أدرى كيف حدث هذا.. لكنى وجدت نفسى بالداخل أنظر إلى الأثاث وإلى الجدران.. لقد نسيت نفسى لحظة وأنا أتخيل البيت الذى يكتب فيه...

كنت أحسب الفنانين أناسا غير عاديين.. أتصور مكتبة والأوراق وقلمه.. أريد أن أرى محراب فن.. وهيكلا للخلق.

ودفعت بنفسى بين أرفف المكتبة.. بين الكتب والمجلدات لكن سؤالا خطيرا ظل يضج فى أعماقى ماذا سيفعل بى هذا الرجل؟.

- آمال.. هل رأيت هذه القصة؟.. لازلت حائرا فى نهايتها.. لا أعرف كيف انتهى بها...

- حاول أن تكتبها الآن.. دعنى أفكر معك فى نهايتها،.. وضحك وكأنه يستمع إلى اقتراح شاذ وغريب،.

- كيف أكتب وأنت موجودة.. وأنت تطلين على أعماقى.. لا يا صديقتى أن لك ذكاء نفاذا وعيونا فضولية تتأمل حياتى رشخصى.

- ولكنى سأكون سعيدة وأنا أتبع عملية خلق.. وأنا أرى فنانا يملأ الأفكار حياة..

لماذا لا تكون واضحا وبسيطا؟

- أنه بعض من غرور الرجل

- تذكرفقط انك خالق.. وفنان

- مهما حاولت فلن أستطيع..

ولكن ما دمت تصرين.. فخذى واقرئيها.. دعينى أعيشها مرة أخرى بصوتك ثم نبحث بعد ذلك أمر النهاية..

وأمسكت بالأوراق حاولت أن أقرأ.. كلماته التى طالما رددتها لنفسى.. واحتوتها عينى.. لكنى اليوم أقرأها له وبصوتى..

وأحسست بالكلمات ترتعش فى حلقى وعيناه تتراقصان بالابتسام وتوقفت لألتقط أنفاسى..

وقال: أكمل لك بقيتها لنفكر معا فى النهاية.

سمعته يقول هذا بلسانه فقط.. أما عيناه فكانتا تهمسان لى.

«سأعفيك يا صغيرتى من قراءة كلماتى التى أعرف انها عزيزة عليك.. وأنها تؤثر فيك..

وأنت ولا شك تقومين بمجهود لتجعلى الكلمات عادية ونبرات صوتك محايدة».

يالثقته المدمرة بنفسه.

انه لا يكف عن تعذيبى «عن اختبارى»

دائما تؤكد لى بسمته أنه يعرف نهايتى..

مهما حاولت سأسير فى طريق يرسمه لى.. أنسى آمال وجودى وطموحى.. وانكمش تحت قدميه مثل كومة الكتب المبعثرة..

أن أسجد له ذلك الرجل الشرقى العربيد..

أنا لن أسجد يا صديقى،.. لن أقبل الأرض بين يديك.. أو أذيب قلبى بين شفتيك. .بين ابتسامتك الساخرة ونظرتك المتسلطة.

- هيه ماذا تقول ؟

يسألنى عن نهاية القصة.. ها قد عدنا للقصة المسكينة بيننا.. لماذا تستعجل النهاية دائما.

- هل الحب يغفر الخطيئة؟

«الحب؟.. نعم يستطيع .. وهل يرتكب خطيئة من يحب»؟

ولكن هو يستطيع الحب أن يغفر لى.. وأنا أضع رأسى على صدرك.. وأنا أرجوك أن تكف عن التطلع إلى بهذا السخف، فما عدت أحتمل..

هل يغفر الحب لى لو أننى بكيت الآن بعد أن طالت اللعبة.. هل أترك كل شئ وأسمع صوت الحب داخلى؟

وأنت لم تضحك الآن..؟ هل تتلذذ من الإيقاع بى.. من لحظة الضعف التى ستراها..

من ثقتك بأن النساء سواء.. وأنه مهما حاولت المرأة.. تثقفت أو ناقشت فهى ضعيفة ولعبة أمام الرجل .. أى رجل..

أو على الأقل رجل مثلك..

لن أحتمل فرحتك ساعتها.. لن أحتمل نظرتك..

- أيه ما رأيك؟

من رأيك أنه يغفر كل شئ ...

رأيك دائما جميل.. هل تذكرة لحظة الواقع.. وهل تغفر لى؟..

ولم يستمع الى كلماتى تماما.. وحديثى الخارجى الذى حاولت أن يكون موضوعيا تماما ولا يحيد عن فكرة القصة.. وسمعته يقول:

- شعرك جميل.. لو أنك تركته.. لو أنك أرسلته على حريته..

لا أتصور أبدا وأنت الفنانة الرقيقة أن تقيدى جدائل شعرك بهذه المشابك الحديدية....

هل لى أن أخلصك منها؟

وقبل أن أجيب كانت يده قد انتزعت مشابك شعرى.. وكدت أصرخ .. لقد تعريت.. تعريت أمامه.. لكنى لن أضيع.. سأميت هذه النظرة المغرورة الواثقة من عينيه..

وشعرت بأنفاسه تلفح وجهى.. ويدى تتشبث بأوراق القصة.

هل يستطيع الحب أن يغفر لى؟

وتقلصت أصابعى على الورقة الأخيرة.. انها الورقة الحائرة فيها نهايتها..

لا.. انى أقوى من هذا بكثير..

وانسكبت الورقة من يدى.. وملت لأمسك بها.. وجذب هو رأسى اليه..

ضاعت البسمة الساخرة لأول مرة من على الشفتين.. وأحسست بهما..

دفء العالم كله احتوانى وذوبنى..

لكنى نفضت الدفء عندما تمكنت من استرداد أنفاسى.. وألقيت بنفسى إلى بعيد.. ووقفت وجسدى كله يرتعد .. يرتعد كالقطة النافرة..

أنا لا أريد..

لا أريد مع كل هذا الدفء والاثارة أشعر أني لا أريد.. لم ينسنى الحب نفسى .. ولا يستطيع أن يغفر لى..

- لابد أن أذهب..

واعتدل.. نظر إلى جسدى الصامد أمامه ببرود

- تذهبين.. هل تأخرت؟

- نعم يجب أن أعود

- كما تحبين.

وسرت لألتقط حقيبتى.. ولم يتحرك..

أخذت الكتاب الذى اخترته من مكتبته.. ولم ينهض.. وعدت اليه..

- ماذا جرى؟

- لاشئ

قالها بلا مبالاة.. لاشئ، والبرود يكسو وجهه وسألنى: هل أوصلك

- طبعا

- كما تحبين

دائما يقولها.. دائما يشعرنى أننى التى ترغب وهو فقط يحقق لى ما أريد.. هو يحيل خيالى البكر إلى واقع ملموس.!

حتى عندما قبلنى.. كنت أسمع صدره يردد.. أنت تريدين القبلة.. أنت تتلهفين عليها.. أنا أعرف أنك لم تذوقيها من قبل.. وأنا الآن أعطيها لك.. أمنحك تجربتك الأولى النادرة..

وسأل بتهكم: متى تأتين؟

- متى آتى؟ متى تريد أنت أن نلتقى؟

- كما تحبين.

ياللعذاب.. سأتى فى الغد.. هل استراح قلبك الآن..

ولكن لا.. سآتى بعد غد.. أو لعلنى مشغولة.. لا أعرف..

سأمر عليك عندما أفرغ من مشاغلى.. عندما أريد.

عند البيت.. بدأت ألمح الحيرة فى عينيه.. نظرته التى لم تكن لتشع الا للسخرية والعبث..

قال وكأنه تذكر فجأة.. وكأن الفكرة جاءت عفوا اليه..

- هناك فيلم جديد والعرض خاص فى الغد.. لابد من حضورك خصوصا وأن القصة تدور فى ريفنا الجميل..

ومنعت الابتسامة أن تبرز على شفتى..

جاء دورك الآن يا صديقى .. جاء دورك لأن تطلب منى اللقاء..

لقد أحببت فيك الفنان.. وعشقت الكاتب .. وكان كل شئ مهيئا لأن أعجب بالرجل أيضا..

لكنك أثقلت على.. واندفعت نحوى بكل ثقتك وغرورك.. وحقيقة رأيك فى المرأة..

كنت تستعجل النهاية وتريد أن تصل إلى النتيجة بأى ثمن .. كل ذلك على أشلاء أفكارى وكيانى الذى ظللت أنميه..

هذا الرجل لا يعرف أننى لكى أصل إليه.. لكى أجلس أمامه بجسدى الناحل ووجهى الشاحب.. وأصابعى السمراء... خضت صراعا كبيرا..

أنا تعذبت كثيرا حتى أجد نفسى..

هو لم يشق كثيرا وهو يكون ذاته فالكل كان يعترف به وبوجوده..

أما أنا.. بنيت كيانى من خلال أب قاس.. وأم خاضعة

.. ومجتمع ينظر إلى على أنى مخلوق ناقص..

أنا بنت.. فماذا أستطيع أن أفعل؟..

وجئت إليك وقد قطعت فى الشوط مسافة بعيدة.. وحفيت أقدامى من الرحلة..

اقتربت وأنا أريد أن ألتقى بأفقك البعيد.. بأفكارك المشرقة.. بإيمانك بقدرة الإنسان..

أنا أحببت عينيك وصوتك.. ويدك الخشنة.. وكادت يدى تغفو بين يديك إلى الأبد.. ولكنى عندما سمعتك وأنت تقبلنى تهمس فى أذنى كالفحيح..

«أنسى كل شئ عن طموحك.. عن أفكارك وآمالك.. والعمل الذى تريدين أن تعدى نفسك له..

تذكرى فقط أننا هنا معا.. أنت وأنا.. مجرد رجل وامرأة..»

أحسست أنك تسلبنى الكثير.. تطلب منى أن أكون مجرد أنثى.. أنثى حيوان ثائر..

تريد أن أنسى».. أنسى كل شئ ولا التقى بك الا فى هذا الحيز الصغير..

وأحسست بمئات الأذرع تبعدنى عنك.. ومسافة عميقة تفرق بينى وبينك..

والا.. فلم كانت نبضات التمرد منذ البداية.. لم عرضت نفسى للألم والمقاومة.. وأنتظر مثل أمى..

وجلس بجانبى فى السينما يرقب البنت الفلاحة المسكينة وهم يسوقونها للزواج من رجل غريب غير الذى اختاره قلبها وهى ضعيفة لا تملك سوى البكاء.

دائما نفس المشكلة.. ونفس المأساة..

وأنا لا أريد أن أبكى.. لكن الدموع تفيض..

وأنا أتحصن بالظلام.. وانتفض .. انتبه إلى أن صاحبى لا ينظر إلى الشاشة ولا يتبع مأساة المرأة فى بلادنا..

أنه ينظر إلى وابتسامته تضئ..

لابد أنه سعيد.. سعيد فهو يعرف أن هذه الدموع هى قربان لصراع داخلى.. هى دخان الحيرة المتأججة فى صدرى..

ذهب الظلام وجلسنا متقابلين.. ماذا عند كل منا للآخر.. لم لا نكف عن هذا التعذيب.. وأمسك بالورقة التى أمامه.. وخط فيها رسما صغيرا.. وعينى تتبع أصابعه المتقلصة.. أين الحنان فى قبضتك.. أين الحنان..

وهو يقول: هل أرأسمك؟...

أنا لا أجيد الرسم ولكنه مجرد رمز صغير..

أنت تجيد الرموز.. ماذا؟ علامة استفهام كبيرة.. غامضة .. أنت لا تعرف ماذا أريد وما حقيقة هذه الهوة بيننا. لم أقاوم الحب..

لهذا السبب أبدو غامضة.. فقط لانى لا أريد أن أصبح جارية.. لا أريد الخضوع أو أن تصبح نظراتى ذليلة مستكينة والآن تطلب منى أن أرسمك..

تمنيت دائما أن أعبر بالخطوط.. أن تكمن فى أصابعى مقدرة التعبير بالصورة.. ليتنى أصنع لك لوحة وأبرز ابتسامتك .. ونظرتك الملحة القاسية..

لكن مادام الأمر لا يخرج عن دائرة الرموز فهذا بسيط.. علامة استفهامك تغيظنى.. أنت.. أنت علامة تعجب طويلة ممدودة!.

وبانت الخيبة على جبينه....

وفجأة لمعت عيناه ببريق .. بريق فكرة.. قلها.. قلها.

فأنا أعرف لذتك عندما تعثر على شئ جديد..

وابتسم وهو يقول:

- عندما أضع علامة تجمع الاستفهام والتعجب.. فماذا تكون النتيجة؟

وارتعش قلبى.. أنا لن أندمج معك.. لن أفنى فيك.. سيكون فى ذلك نهايتى..

وهو يتعجلنى أن أجيب.. لا تفكرى كثيرا.. مجرد رمز بسيط.. أول خاطر يأتى اليك.. ورسمت نغمة موسيقية .. نغمة وبجانبها نغمة أخرى.. قد تكونان لحنا فى النهاية...

ولكن دون فناء وكل منهما تحتفظ بكيانها وشخصيتها..

وهمس لى جبينه المبلل بالعرق..، كنت أريد عناقا.. أريد فناء .. أريد لرمزى أن يكبر ويتضخم حتى يحتويك وتغرقى بين طياته.. وتستكينى هناك.. وأصبح أنا كل دنياك..

ولكن ما دمت تصرين على العذاب..

مادمت ترفضين تلك الجنة التى أريد أن أنقلك إليها فتنسى كل شئ عن طموحك وأفكارك..

ترفض أن أصبح أمسك وغدك وحاضرك ..

أنت لا تريدين.. أنت عذ ده..

سنرى إلى متى يستمر رفضك يا آمال..

ولكن حذار لن أتساهل معك..فأنا لم أتعود الهزيمة مع النساء.

لم لا نكف عن هذا الصراع قبل أن يحطمنا أو يحول بيننا وبين الطريق!..

أننا نسير في درب واحد.. لكنا جئنا من زاوية مختلفة..

هو يسير مطمئنا لا يعرف معنى لقلقي أو خوفي وتطلعي إلى أن أدوام المسير.

ولكن لست أنت نهايتي .. ولست كل هدفي..

كنت أحسب الحب يعينني.. يمدني بجذوة حماس وحرارة الانطلاق.. ولكنه يأبى الا أن يقف أمامي كالمارد الجبار..

يريد أن يغلق على أبوابه وأعرف الدنيا من خلال عينيه .. ومن رضاب شفتيه..

وما أريده كثير.. وكبير..

لنكف أذن عن العذاب.

علينا أن نفترق الآن قبل أن تتلاشى المعاني الحلوة التي كانت تجمعنا.. لنهرب قبل أن يدركنا الرماد وأنا في حاجة إلى الهرب حقا.. ضعيفة وأنا أتخذ هذا القرار.. ضعيفة أمام البسمة الساخرة..أمام عينيه تتطلعان الى وتجوسان داخلي..

ومرة أخرى يضمنا الطريق..

طريق العودة بعد لقاء لم نحقق فيه شيئا.. ولم ننته إلى نتيجة..

وأمسك بيدى.. وأنا أتركها له.. يدى تغفو بين يده الكبيرة الخشنة.. ولكن بيأس كبير والزحام من حولى كبير.. والعربات تمرق بسرعة مجنونة.. الناس تسير وكأنها تجرى وتساؤل بسيط يزحف على صدرى.. فيم العجلة وعلام يسرعون؟

لقد انتهى كل شئ.. وهذا هو اللقاء الأخير..

وتلك المشية البطيئة اليائسة نشيع فيه جثة الحب العزيز.

ووصلت إلى البوابة الحديدية الضخمة .. أنها سوداء حزينة تريد أن تبتلعنى خلفها وأنا أريد أن أملاء عينى من صورته.. أن أطبع ملامحه فى ذاكرتى لسنين طويلة سأعانى منها..

هل أفقد حياتى الآن وأخسر نفسى لا تشبث به ألا يذهب .. وألا يغيب.

لكنها لحظة واحدة التى توقفت فيها أمامه قبل أن تتسلمنى الجدران الصماء.. وتسلمنى لليل طويل..

لحظة واحدة أهتز فيها كيانى.. وهو يقف قبالتى محايدا يسجل كافة الانفعالات داخلى..

وذهبت دون وداع..

البيت الكبير .. وحجرتى الباردة

ودق جرس التليفون:

سمعتهم ينادون اسمى.. وأدوار البيت الثلاثة تردد النداء

.. زميلات تطوعن لدق بابى..

ونهرتنى نوال مرة أخرى.. لماذا تشردين..

وقمت.. كان هو.. أنه فقط يطمئن..

لك أن تطمئن .. فما زالت بى حياة.. ورغبة لأن أعيش.

وجاءت صديقتى نوال..

هالها الحال الذى وجدتنى عليه .. أمريضة أنت؟

- أنى أكثر من مريضة يا نوال.

- ولكن بما تشكين؟ أهى قصتك مع صاحبك أنا فى الحقيقة لا أعرف ماذا تريدين

حتى نوال لا تعرف ماذا أريد.. حتى صديقتى تقسو على .. وأسمعها تقول:

أنت بلا عواطف .. تضحين بالحب.. بالرجل الذى تريدين .. من أجل أن أمامك رسالة .. وعملا تحبينه؟

تسلمينه بيدك لامرأة أخرى.. تعرف كيف تعامله وتبدو أمامه أنثى.. كان يجب أن تكونى رجلا.

- يانوال أنت تعرفين.. أنا أذوب من الحب.. ولكن عملى.

يعنى لدى الكبير.. كل حرف أكتبه يقودنى إلى طريق جميل .. هناك سأجد أشياء رائعة كانت تستحق الدفاع عنها والتضحية من إجلها.

وصرخت: إلى الجحيم كل ما كتبت .. وتكتبين.. ما معنى الفن بلا حب.

واستدارت لتخرج.. تركتنى وحيدة مرة أخرى زاد ألمى.. هذا رأى صديقه لى.. فتاة مثلى ، واحدة ممن ضحيت من أجلها..

وعادت بعد قليل تقذف لى بالجريدة..جريدته التى يكتب به ونشرتها بين يدى .. بين دموعى لأرى ماذا يكتب هذا الخائن..

أى قيم جديدة يدافع عنها وماذا عنده ليقول للناس مرة أخرى:

كانت الصفحة السوداء تحمل اسمه بالخط العريض. كان يقول؛

«أنا بالحب أغزو النفس البشرية ،، أعريها لأعرف حقيقتها .. أعرف ضعفها وقوتها» ..

أنا أمين لفكرتى ومبدأى.. لكن كالعالم يجب أن أجرى تجاربى.. وتجاربى تنعكس على البشر».. على البنت التى أحبها،

كان يجب أن أصل معك إلى قمة الحب حتى أعرفك حتى أصل إلى أعماقك .. كان الحب طريقى ووسيلتى .. وابتسمت ..

لأول مرة ابتسم منذ وقت طويل.. لايمكن أن أكون مجود رسالة..

«إذا حاول الكاتب أن يبرر نفسه فهو يقترب من النهاية..

أو من الخيانة.

ونهضت .. وقفت اطل من النافذة كانت الحديقة مشرقة .. البوابة السوداء الكبيرة مفتوحة وذاهية فى ضوء النهار..

تقف شامخة وكأنها تحمى القلعة الكبيرة خلفها وتحمى قصتى..

وقمت لأكتب فمازال ورائى عمل كثير.

سينما في بيت الطالبات

كانت ساعة الجامعة تدق الثامنة مساء.. والظلام يزحف على المدينة ويتكاثف فى حديقة بيت الطالبات..

وهبت أبلة نعيمة من على كرسيها وأغلقت أدراج مكتبها وأمسكت بسلسلة مفاتيحها الضخمة ثم نزلت إلى الحديقة..

كان هناك حسن الجنايني ينتظرها كالديدبان .. وتبعها صامتا حتى وصلا إلى البوابة الضخمة فأغلقت أبلة نعيمة القفل الكبير.. وعادت إلى البيت مرة أخرى ..

عندما تصعد أبلة نعيمة السلم وتخطو إلى الداخل تكون وجيدة الخادمة راكعة على ركبتيها وهى تنظف بلاط الممر الصغير أمام مكتب أبلة نعيمة والصالون..

تتأملها أبلة نعيمة بتلذذ ثم تقول لها:

- أهو كل يوم حامسحك البلاط كده ولو نص الليل لغاية ما تتعلمى النظافة.

وجيدة: وحياتك يا ست نعيمة أنا مسحاه الصبح والضهر .. لما بقى زى القشطة.

تصرخ أبلة نعيمة: أمال الوساخة دى جاية منين؟

تنبعث ضجة مفاجئة من الداخل وصوت ضحكات البنات. تترامى من الصالة الداخلية تسرع أبلة نعيمة إلى نهاية الممر وتقف لترقب بحذر وتربص.

الصالة الكبيرة الداخلية التى تقع بين حجرات الدور الأول من بيت الطالبات والبنات تقف فى شبه دائرة وفى مجموعات صغيرة متناثرة.

يوجد فى الركن راديو كبير وبيانو تستند إليه بعض البنات.

تجلس أمامه آمال وتعبث أصابعها بمفاتيحه.. واحدة تقول لها:

- قومى يا آمال خلى سعاد تضرب لنا حتة مزيكة نرقص عليها قبل العشا

وتهتف هيام: حقه نفسنا نرقص. ايه النغمات النشازدى .. هى فين سعاد..

وتتقدم سعاد..

سعاد: بلاش حكاية الرقص دى.. لحسن أبلة نعيمة تطب..

ويظهر أن آمال مصممة تكون الفنانة الوحيدة فى البيت آمال تستمر فى مداعبة أصابع البيانو بعنف.

آمال: مادام ما حدش بيصلح الراديو الخربان ده (تشير إلى الراديو)

ايه مش عاجبكم اللحن ده.. لحن جنائزى اسمه خطوة أبله نعيمة..

تضج الصالة بالضحك.. ويبدو وجه أبلة نعيمة متقلصا فى الظلمة.. وتكاد سعاد تهم بالحديث لكنها تكتم ضحكاتها وتنظر إلى نهاية الصالة خوفا من وجود المشرفة تمتزج الضحكات بالرقص والغناء.. وفجأة تبرز أبلة نعيمة من مكمنها وتتوارى سعاد بسرعة بينما تظل آمال جالسة أمام البيانو.. تتأملها نعيمة بضع ثوان تختفى فيها الضحكات تماما.

أبلة نعيمة: أظن أحسن تروحوا أوضكم وتخلوا البنات اللى عايزة تذاكر تعرف تذاكر..

انتم مش عارفين أن الرقص ممنوع... وعيب ترقصوا مع بعض

صوت مكتوم: آمال نرقص مع مين؟

يبدأ الانسحاب الى الحجرات وتطفئ أبلة نعيمة النور بغيظ.

صباح اليوم التالى .. السماء صافية والطيور تغرد فى الحديقة.. وساعة الجامعة تدق.. الشارع أمام بيت الطالبات يمر به بائع اللبن وبائع الجرائد وبعض العمال.. وجيدة تتقدم من الباب الكبير لتفتحه.

شيخ معمم يسير فى الطريق ويحرك مسبحته الضخمة.. يلمح ذراع وجيدة الأسمر الجميل من بين القضبان.. يتوقف لحظة فاغرفاه..

وفى نفس اللحظة التى تفتح فيها وجيدة البوابة يمر شعبان الجزمجى ودكانه بجانب البيت يتوقف لحظة ويهمس لوجيدة بتحية الصباح.. وكان يبدو من وقفة وجيدة أنها تنتظر مجيئة يسير الشيخ ساخطا وهو يستغفر الله ويلعن عباده الكافرين.. صوت أبلة نعيمة من الداخل مناديا على وجيدة.

وتبدأ الحياة تدب فى البيت الكبير.. وفود الطلبة تبدأ فى المسير فى الشارع.. تتوقف بعض التلميذات الصغيرات لقطف الياسمين من على سور الحديقة.. يفزعن عندما يلمحن حسن الجناينى جالسا فى الحديقة يحتسى كوبا من الشاى.

يجلس حسن الجناينى بجانب السور فى مواجهة البيت.. وكان يخفى رأسه داخل جريدة.. ثم يتطلع من حين لآخر إلى الشباك العلوى حيث تقف سعاد فى قميص نوم عار.. سعاد ترتد بسرعة عن الشباك عندما تتبين نظرات الجناينى.. تغلق النافذة بعنف وتستدير قائلة لآمال التى لاتزال مستلقية.

فى سريرها وفكرها شارد إلى بعيد.

سعاد: الواحد مش عارف يستريح فى البيت ده.. يهرب من نظرات أبلة نعيمة يطلع لنا زفت حسن الجناينى كمان.

آمال: نفسى أعرف هوه شغلته هنا آيه بالضبط.

سعاد: أنا عارفة مخليينة ليه فى البيت

آ: لا.. ده وجوده مهم قوى خصوصا لأبلة نعيمة (تنهض) يلا بينا مش معقول نبتدى اليوم بالكلام عن سى حسن.

تنزلان إلى صالة الطعام الموجودة فى البدروم.. وجيده تدور بين الموائد وترفع الصحاف.. تساعدها الدادة الكبيرة التى لا تكف عن ألقاء الأوامر لها كلما أقتربت منها.

تغيب وجيدة بعض الوقت ثم تعود لتلقى فى أذن آمال ببعض كلمات.. تتوقف بعدها عن الأكل ويبدو الضيق على وجهها.. سعاد تسألها باشفاق:

سعاد: ايه أبلة نعيمة عايزاك؟

آمال: أروح أشوف عايزة ايه على الصبح

(سعاد وكأنها تتذكر)

سعاد: أنت دفعت مصاريف الشهر ده؟

آمال: لسه

سعاد: أهى حاتسمعك كلمتين حلوين خصوصا بعد ليلة امبارح..

دى أكيد سمعتنا واحنا فى الصالة..

تتقدم الدادة الكبيرة وتتباطأ فى رفع الصحون لتسمع الحوار.. تستجمع سعاد شجاعتها وتقول:

سعاد: والله الواحد يتجوز ويستريح من وجع القلب ده تغادر آمال صالة الطعام فى طريقها إلى حجرة المشرفة.

آمال فى مكتب أبلة نعيمة.. أبلة نعيمة تتمشى أمامها فى الحجرة ويداها خلف ظهرها.. آمال تقف صامتة وتتأمل حركات أبلة نعيمة.

أبلة نعيمة: أنا ما أقدرش على كدة.. كل شهر تتأخرى.. البيت ده له نظام.. فيه قوانين.. المصاريف لازم تجينى أول يوم فى الشهر.

آمال لاتزال صامتة.. وتستأسد أبلة نعيمة لذلك فترفع صوتها أكثر.

نعيمة: ما تتكلمى.. قولى لى رأيك ايه؟

آمال: ان شاء الله توصل الفلوس قبل آخر الأسبوع ده.. تغادر الغرفة دون استئذان.

الشارع المؤدى إلى الجامعة.. بنات بيت الطالبات يسعين إلى كلياتهن المختلفة.. سعاد تسير بمفردها.. خلفها بعدة أمتار تسير زميلتان.. شاب جامعى يتقدم من أحد الشوارع الجانبية يحيى سعاد ويسير بجانبها.

تقول الفتاة الأولى لزميلتها وهى تقلد حركات الشاب:

- صباح الخير ياسوسو

ترد الثانية - صباح الخير.. أتأخرت ليه

- أصلى مانمتش طول الليل.

تضحكان وتتغامزان.. ثم يستمر حديثهما

- على كدة بقى له سنين ما بينمش المسكين.. أصل ده الكلام بيقولوا لكل واحدة.

- الواد عادل ده بقى له ثمان سنين فى الحقوق.. وتلقى سعاد فاهمة انه بيحبها ومستعجل الأيام عشان يتجوزها.

منظر الجامعة.. أوتوبيسات كثيرة ومزدحمة بمئات الطلبة والطالبات يتدفقون من الباب الكبير.. ساعة الجامعة تدق.. الطلبة يدخلون إلى قاعات المحاضرات.. آمال تأتى مسرعة وتتجه إلى مبنى كلية الآداب.. تتوقف أمام سبورة سوداء فى مدخل الكلية وتقرأ:

(الجمعية الادبية تدعو اليوم الكاتب «أحمد عزمى» ليتحدث عن المرأة كما صورها الشاعر نهاد..)

تقرأ الاعلان وهى تلهث لوصولها متأخرة،.. تبتسم ثم تسرع إلى الداخل.

قاعة محاضرات كبيرة.. طلبة وطالبات الجمعية الادبية يجلسون لاستماع محاضرة الكاتب الكبير.. أمال تجلس فى الصف الأول.

أحمد عزمى الكاتب يتكلم بصوت منخفض واثق.. حلو النبرات.

أحمد عزمى: شاعرنا الكبير نهاد.. يعتبر من المتخصصين فى المرآةكل شعره تقريبا مكتوب لها.. وعنها.. وهومن شعرائنا الشبان المجددين.

آمال: أنا أعترض على وصفه من الشعراء المجددين.. هو وان كان شاب صحيح الا أن نظرته للمرآة لا تختلف عن نظرة أجداده.

الاستاذ أحمد يتطلع إليها جيدا

أحمد عزمى : طبعا أنا كنت ناوى أقول أنه مجدد من حيث الشكل بس مش المضمون.

آمال: أصل أحنا ممكن نقول أن الاستاذ أحمد عزمى كاتب مجدد ومتقدم ونسكت.. وفى الحالة دى ماحدش يعترض أنما عند الشاعر نهاد لازم نقول أن الشكل بس هوه اللى جديد لكن نظرته للمرآة عموما أنها جارية وشئ للمتعة.

تصفيق.. أصوات اعتراض من الطلبة.. آمال تجلس.. ويتابع أحمد عزمى حديثه.

أحمد عزمى يسير فى فناء الكلية وحوله بعض الطلبة وآمال من بينهم يتابع النظرإلى آمال ويتحدث للجميع.

أحمد: الحقيقة أنا النهاردة سعيد ومبسوط قوى بجو المحاضرة.

دى حاجة رائعة أن الواحد يشوف اهتمام الشباب بالثقافة والفكر وأظن الآنسة..

يقدمها إليه أحد الزملاء.. يقول أحمد عزمى

- أظن الآنسة بتدريس أدب.

آمال: وبأعد نفسى إنى أكون كاتبة

عزمى: كويس جدا.. يسعدنى أنك تيجى عندنا المجلة وأتابع انتاجك ومناقشتك.. حتى تقدرى تمرى بكرة مثلا نكمل حديث نهاد.

يودعه الطلبة.. تقف آمال وسط الفناء سعيدة تبرق عيناها بآمال كثيرة.

عصر اليوم التالى.. آمال وسعاد تستعد كل منهما للخروج ،، تتزين بسرعة.. تلاحظ طول وقوف آمال أمام دولابها ومرآتها حائرة.. لا تدرى حتى ماذا تنتقى من أثوابها القليلة .. وأيها يكون جديرا بالمناسبة السعيدة.. سعاد تتدخل. آمال تستعجل وجيدة فى احضار حذائها من عند شعبان الذى يقوم بإصلاحه وتنظيفه.. سعاد تعلق على قلق آمال واهتمامها بزينتها:

سعاد كانت رايحة ميعاد غرامى مش زى مابتقولى شغل.. وفكر!

تنزعج آمال تختفى من الغرفة لتكرر النداء على وجيدة.

وجيدة تتسلق حجرا فى الحديقة وتطل على شعبان من الشباك الصغير المطل على دكان شعبان.. شعبان منهمك فى تلميع الحذاء.

وجيدة: نفسى يا شعبان تفصل جزم جديدة.. ده انت الجزمة العدمانة فى ايدك يبقى لها منظر.

يتنهد شعبان: كل شئ ينول بالصبر ياجميل..

وجيدة: والله ماحد مخلينى أستحمل الغلب ده كله إلا أنت.. ياشعبان

شعبان: آخرة الشقا خير برضه.. بكره لازم أجمل.. والحمد لله معاك برضه ناس طيبين..

وجيدة: حقه.. ست آمال.. وست سعاد.. بيعاملوا الناس زى البنى آدمين.. لكن كله إلا الست نعيمة.

يرتفع صوت أبلة نعيمة بالصراخ فجأة والنداء على وجيدة.. تخطف وجيدة الحذاء من يد شعبان وتكاد تقع من على الحجر.. يشبك طرف ثوبها فى مسمار ويمزق من أعلى ساقها.. تصطدم باندفاعها بحسن الجناينى الذى كان يتأملها من مدة.. ويتطلع إلى ساقيها.. تدفعه بغيظ وتسرع إلى الداخل.

أبلة نعيمة تنتظرها أعلى السلم

وجيدة: أيوه.. أيوه.. ياست نعيمة

نعيمة: كنت فين يابلوة من الصبح.. مافيش وراك غير الجزم.. وشعبان

سعاد وآمال تنزلان من على السلم.. تندفع سعاد خارجة ـ وهى تكاد تتوارى من أبلة نعيمة..

آمال بالشبشب.. تأخذ الحذاء من وجيدة وتلبسه.. ثم تسرع بالخروج مولية ظهرها لأبلة نعيمة..

نعيمة تتوعد وجيدة بصوت هادر وهى فى طريقها إلى حجرة مكتبها لتطل على البنات من وراء الشباك كعادتها..

ـ حسن الجناينى يدخل الحجرة ويظل يرقب أبلة نعيمة.. تعتدل فجأة وتجفل لوجود حسن

تصيح..

نعيمة: ايه.. فيه ايه؟

حسن: أصل لامؤاخذة..

نعيمة (بضيق): مؤاخذة ايه.. ماتتكلم..

حسن: ست سعاد ركبت عربية كانت مستنياها على الناصية

نعيمة: طيب

تصرفه ثم تخرج من درجها دفترا تسجل فيه بعض الملحوظات.

* * *

سعاد فى العربة بجانب عادل.. عادل ينظر إليها من حين لآخر وهى تبادله نظرات الحب والأهتمام..

سعاد: بص قدام وأنت بتسوق

عادل: عايز أفضل أبص لك على طول

سعاد: ياريتنى أصدق كلامك

عادل: أعيده تانى علشان تصدقيه

سعاد: تعرف سمعت البنات عندنا بيقولوا ايه؟

عادل (فى استغراب): ايه؟

سعاد: انك قلت الكلام ده كتير..

عادل: لكن أنا بقوله ليك أنت بس

سعاد: للنهاردة ولا بكرة

عادل: النهارده وبكره وكل يوم ..

يقود العربة بسرعة.. تنزلق العجلة على الأرض.... عجلة أخرى هائلة تدور.. وآمال تعبر المطبعة فى طريقها إلى حجرة الكاتب أحمد عزمى آمال تتقدم وتحييه.. ثم تجلس فى مواجهته

أحمد: فى الحقيقة أنا عجبنى كلامك يوم المحاضرة.. وتأكدت أنك نموذج من البنات الواحد يحب يتعرف بيه.. ويساعده كمان والحماس دايما شئ جميل

آمال: الحكاية مش مسألة حماس بس.. ده مبدأ

أحمد: لكن بيخيل لى أنك عايزه تجردى المرأة من أنوثتها

آمال: الأنوثة مش معناها ضعف أبدا.. جنسها لايمكن يقف عقبة في طريقها.. في حقيقة وجودها كانسانة.

أحمد: ده منطقك جميل.. وأنا أفضل أنك تيجى دايما.. وأهى فرصة للاستفادة والتمرين..

آمال: وإذا كان فيه أى عمل ممكن أقوم به.. وأنا مستعدة يفكر أحمد مدة.. ثم وكأنه عثر على فكرة..

أحمد: آه ممكن مثلا تترجمى بعض المقالات والأخبار.. دى طبعا لها أجر بسيط لكن أهى تساعدك على الدخول فى الوسط

آمال تحمل بعض الجرائد والمجلات فى طريق عودتها إلى البيت.. أنها تسرع فى العودة لأن موعد اغلاق الباب قد حان..

فى نفس اللحظة تكون سعاد نازلة من عربة عادل فى بداية الشارع الموصل إلى البيت أيضا..

عادل يسير بجانبها ويحاول أن يحتفظ بيدها.. سعاد تهرب بيدها..

سعاد: بس ياعادل.. أحنا قربنا خلاص

عادل: أوصلك وأطمئن عليك

سعاد تدفع يده.. وتبتعد عنه..

سعاد: لأ كفاية.. تصبح على خير

تدخل سعاد وبعدها بعدة لحظات تصل آمال أمام البوابة وأبلة نعيمة تكاد تدير المفتاح فى القفل الكبير.. تطل عليها نعيمة بوجه قاس.. آمال تقف صامتة

نعيمة: جرى ايه ياآمال.. أفضل أفتح وأقفل.. فيه ميعاد لازم تحترموه

آمال: أظن دى أول مرة.. وماالتأخرتش

تفتح لها نعيمة الباب.. تدخل آمال وعندما تعبر أبلة نعيمة تقول لها الأخيرة بصوت متشف.

نعيمة: المفروض أورد الفلوس بكرة للجامعة

تتوقف آمال لحظة.. تهز رأسها.. ثم تستمر فى الصعود.. تقول أبلة نعيمة:

ـ مش قادرين تتعلموا.. بلاش أحسن.. ريحونا واقعدوا فى بيوتكم.

* * *

الصباح أبلة نعيمة تجلس فى حجرة مكتبها ورأسها مدسوس فى دفتر كبير..

الدادة الكبيرة تنظف لها الحجرة.. وترتب محتوياتها وتثرثر.. أبلة نعيمة تتظاهر بأنها لاتهتم بثرثرتها لكنها لاتلبث أن ترد عليها من حين لآخر.. ويبدو أن الدادة تعودت منها هذا الأسلوب.. وتمرنت على طريقة القاء الأخبار المثيرة للست نعيمة.

الدادة: دى البت وجيدة بتحوش عشان تتجوز

نعيمة: ناس همج.. يبقوا مش لاقيين يأكلوا ويتجوزوا لولا أنى عارفة أنها تروح تعملها على طول.. كنت طردتها من بدرى..

الدادة: وبيقولوا أن ست سعاد رخره يمكن تتجوز.. إنما أية جوازة حلوة قوى

تلقى أبلة نعيمة بالدفتر فى عصبية

نعيمة: بنات قليلة الأدب.. لسه الواحدة ماطلعتش من البيضة وتفكر فى الجواز..

ده جيل فظيع.. جيل مجنون

(تتحسر) ياعينى علينا أحنا.. الواحدة كانت تتكسف تبص فى المراية

(تضحك المرأة العجوز بخبث)

البنات فى الصالة الكبيرة شبه حلقات.. هيام بتقول لنوال

هيام: إنما دى قصة حب زى روميو وجوليت

نوال: وأهو برضه عيلته معارضة فى الحب والجواز

هيام: وبعدين.. تنتحر جوليت..

نوال: والجديد فى الرواية.. أن روميو يعيش .. ضحكات كثيرة....

* * *

ضحكة رنانة ساخرة فى فيلا أنيقة حيث جلس عادل أمام أمه وهى أرملة جميلة وعابثة..

الأم: لأ.. حقه ياعادل مالكش حق.. دى حكاية تفكر فيها؟

عادل: أعمل أيه يامامى.. مش عارف اشمعنى دى اللى حسيت أنى بأحبها بصحيح

الأم: هوه أنا مـأخـرة عنك حـاجـة .. حـايشـة عنك فلوس .. طلبـات بنات .. أمال ايه بس الأفكار السخيفة دى؟ .. جواز حقه كله إلا الجواز

عادل: أعمل ايه يامامى .. مش عارف أذاكر.

الأم: مـاأنت مش عـارف تذاكـر من غـيرها برضـه ياحبـيـبى .. أنا عمرى زعلتك عشان كده

عـادل: لأ .. دى حاجـة جـديدة .. واحـساس جـديد .. أنا مش ممكن أتخلى عن البنت دى.

الأم: وأنت تعبان فى أيه دلوقت .. مش هيه مصاحباك؟

عادل: بس مش مصـدقة أنى باحبها .. عايز أثبت لها حبى .. ثم أن هيه كمان مش مستريحة فى البيت اللى هيه فيه

الأم: بيت أيه ياأبنى؟

عادل: بيت الطالبات

الأم (تضرب صدرها بيدها) : والنبى دى أكيد طمعانة فيك

عادل أبدا يامامى .. دى رقيقة وطيبة

الأم: طيب .. طيب حاأشوف .. أدينى فرصة أفكر وأسأل فى الحكاية دى ..

(عادل يمسك بيدها ويقبلها)

* * *

عـادل منحن على يد سـعـاد ويمسك بهـا وهى جـالسـة فى أحـد الكازينوهات على النيل.

عـادل: تعرفى ياسعـاد.. عـايز أحس بايديك دى على طول.. لما بتبعدى باحس أنى خايف .. خـايف ووحـيـد.. عايزك جنبى دايما سـعـاد تطرق بخـجل ودلال.. وتسـعـد كـثـيـرا لأنه بدأ يفكر جـديا فى الزواج..

تحاول أن تبعد يدها وهو يطبق عليها بين يديه باصرار

عادل: شوفى ايدك.. ده خط القلب.. قصة حب كبير..

أنا خـلاص قلت لماما على كل حـاجـة ياسعـاد ووعـدت أنهـا تفكر. سعاد يستخفها الفرح.. وتستسلم أصابعها تماما لعناق يده.

آمـال فى مكتب أحـمـد عـزمى.. تناوله بعض الأوراق يأخـذها وهو يتأملها بإعجاب.. ترتبك للحظة.. يلمس يدها.

أحمد: تعرفى ياآمال.. ايديك تنطق أنك فنانة رقيقة

آمال: أظن كفاية عليك قراية الأفكار بس.. مش الكف كمان

أحمد: وأنت ياآمال مش عارفة تقرى أى حاجة أبدا؟

آمال: طول عمرى أقرالك

أحمد: مافيش كلام تانى مثلا مش قادر أقوله بلسانى..

آمال: أبدا أنت دايما تحسن التعبير

* * *

آمال أمام البوابة المغلقة.. لقد تأخرت هذه الليلة.. وهى تدق الجرس ولاأحد يتحرك ليفتح لها..

وجيدة قلقة تعرف أن القادمة هى آمال.. عندما يطول دقها للجرس تستجمع شجاعتها وتدخل إلى مكتب الست نعيمة لتطلب المفتاح.

تلقيه أبلة نعيمة فى وجهها..

نعيمة: أشمعنى دلوقت ملهوفة.. وطول النهار مخفية مش عارفة فين؟

لكن حييجى الوقت اللى أطردك فيه.. أنت وكل من يخالف النظام

تصعد آمال السلم ومن خلفها وجيدة.. التى تعيد المفتاح مرة أخرى.. وتلحق بآمال فى غرفتها.. سعاد قلقة تتقلب فى فراشها.. تستقبل آمال متزعجة

سعاد: ايه ده ياآمال.. اتأخرت قوى.. كل يوم ننخض كده

وجيدة: حق ياست آمال.. أنا ركبى سابت..

آمال: أعمل ايه.. يادوب باخلص.. وآجى جرى. ده شغل ياسعاد مش لعب..

وجيدة تتحرك وتغلق الباب كى لايسمع أحد.. لأن العمل ممنوع ولاتجيزه لائحة بيت الطالبات.

سعاد: طب وجبت المصاريف؟

آمال: لسه ناقصين شوية.. كان هاين على ماأرجعش

سعاد: وأحمد عزمى اللى جابلك الشغل!

آمال: آه

وجيدة تتسلل من الحجرة بعد أن يرتسم على وجهها معالم الجد ويبدو أنها فهمت.. وأدركت تماما حقيقة موقف آمال.. سعاد لاتزال متحمسة لأسئلتها

سعاد: لكن ده بيهتم بيك أكيد.. يعنى بيحبك

آمال: الحقيقة أنا عمرى مافكرت فى الحب.. خصوصا فى ظروفى دى سعاد تنهض من على السرير وتدور حول نفسها فى الحجرة..

سعاد: أنت بتحبى.. أيه رأيك؟ بس قولى.. أعترفى.. ياسلام أد أيه الحب جميل.. أنا خلاص حاأتجوز ياآمال.. ربنا يتوب علينا من الغلب ده

آمال (مندهشة): تتجوزى؟

* * *

الصباح.. وجيدة متشعلقة على الحجر.. تطل على شعبان

شعبان: صباح الخير ياجميل

وجيدة: اديني الخمسة جنيه اللى محوشتهم ياشعبان.. وبعدين ربنا يفرجها

شعبان: خير حصل حاجة ياوجيدة؟

وجيدة تشير إليه أن يقترب.. تهمس إليه بعدة كلمات.. يسرع بإحضار حصالة قديمة ويكسرها.. يناول وجيدة المبلغ.

شعبان: وما قلتيش من بدرى ليه يابت؟

وجيدة: والنبى ماكنت أعرف

تسرع فى الدخول.. تتوجه إلى مكتب أبلة نعيمة على طول.

وجيدة: آه بالحق ياست نعيمة.. ست آمال فاتت لحضرتك الفلوس من امبارح الصبح معايا.. لأن حضرتك ماكنتيش فى المكتب.. وأنا سهى على.

تدفع بالنقود إلى أبلة نعيمة وكأنها تؤنب نفسها على سهوها.. نعيمة تتطلع إليها فى ارتياب كبير

نعيمة: بقى نسيت ياست هانم؟ ولما هيه متأخرة بالشكل ده.. تأخريهم أنت زيادة؟ ماتعرفيش أن الحكاية دى ممكن يحصل فيها رفد

وجيدة (متوددة): ماهو البركة فيك ياست نعيمة

نعيمة لاتزال تتفحصها بغيظ..

نعيمة: أنت يابت عاملة زى الزئبق كده ليه.. الواحد مش عارف يمسكك منين..

إنما قولى لى.. ستك آمال بتتأخر ليه اليومين دول؟

وجيدة تفاجأ بالسؤال.. ترتبك بعض الشئ.. تحاول أن تدفع رنة الاتهام التى تبدو من نبرات نعيمة

وجيدة: ست آمال طول عمرها تعرف الأصول.. دى بس ظروف

أبلة نعيمة فى تهكم: ظروف؟.. آه منك تعملى هبلة وعبيطة.. لكن أنا وراك والزمن طويل.

يتوالى خروج البنات إلى الجامعة.. آمال فى حجرتها تكتب.. وجيدة تصعد إليها.. آمال تمسك برأسها ويبدو أنها لاتستطيع التركيز فى العمل الذى تقوم به وأن كانت تعكف عليه.. تدخل وجيدة.. آمال تدير إليها رأسها

وجيدة: مش حاتروحى الكلية ياست آمال

آمال: لأ ياوجيدة ورايا شغل كتير

وجيدة تتأمل المجلات والجرائد وصف الكتب الطويل الموضوع أمام آمال

آمال: يعنى حاولت أعلمك القراية كنت دايما تزوغى..

وجيدة: أبدا والله ياست آمال.. إنما أديك عارفة طلبات البنات ماتفرغش.. وكفاية الست نعيمة

آمال تهز رأسها بضيق عندما يأتى ذكر نعيمة.

وجيدة: إنما بقى البركة فيك أهو شعبان بيسهر طول الليل على المجلات اللى بتديهم له

(تلاحظ شرود آمال.. تضع يدها فى صدرها وتخرج وصل المصروفات)

ست نعيمة بعتالك ده (تقدم إليها الوصل)

تدهش آمال تمسك بالوصل وتنظر إلى وجيدة طويلا دون أن يبدو أنها فهمت تماما ماحدث

آمال: إنما...

وجيدة (باستحياء شديد) كله من خيرك ياست آمال.. تنفلت وجيدة وتترك آمال متأثرة.

* * *

أبلة نعيمة فى البدروم تشرف على المتعهد والطباخ.. والخدم .. تلقى بتعليقاتها يبدو أن الجميع يعانون منها ومن خشونتها وغلظتها..

تصعد إلى مكتبها.. يتبعها حسن الجنايني.. تدخل ويدخل وراءها.. ثم يقف صامتا.

نعيمة: نعم

حسن: أصل لامؤاخذة.

تحتد أبلة نعيمة وترفع صوتها: انت كل ماتشوف وشى تقول لامؤاخذة.. فيه ايه على طول..

ده الواحد كفر فى البيت ده.

حسن: فيه لامؤاخذة واحدة ست بعربية عايزة حضرتك.

تدهش أبلة نعيمة وتنهض لتنظر كعادتها من وراء الشيش.. تجد عربة فاخرة تقف أمام الباب تستدير لحسن

نعيمة: قالت لك أنها عايزانى؟ هيه قريبة حد من البنات؟

حسن: دى العربية اللى ساعات ـ لامؤاخذة ـ تستنى ست سعاد.

تفغر أبلة نعيمة فاها... يبدو التحفز والسرور الشرير على وجهها.. تشير بحركات هستيرية..

نعيمة: طب روح.. مستنى ايه؟ قول لها تتفضل ..

يخرج حسن.. تدور أبلة نعيمة فى الغرفة.. تصلح من زينتها وتصلح حال الغرفة.. تتحدث إلى نفسها:

أما نشوف ودى عايزة ايه كمان.. لازم سعاد عملت فضيحة.. تستمع إلى وقع أقدام..

تجلس إلى مكتبها.. تتصنع الوقار.. والإنشغال فى بعض أوراق أمامها.. حسن الجناينى يطرق الباب ثم يدفعه برفق.. يفسح للسيدة أم عادل.. تدخل وهى متبرجة بالحلى والمجوهرات

تنهض أبلة نعيمة لاستقبالها والترحيب بها.

أم عادل: نعيمة هانم.. أهلا وسهلا.. أنا...

بوابة البيت وبعض الطالبات تقف أمامها ينظرن إلى العربة.. تقول واحدة لزميلتها

ـ ايه ده.. مش دى عربية عادل؟

ـ آه والله.. وهوه فين؟.. ياخبر هيه بلغت الوقاحة انه يجى يزورها كمان!

ـ طب وفين أبلة نعيمة؟

تدخل المجموعة بسرعة.. حجرة الصالون المواجهة لمكتب أبلة نعيمة مغلقة.. تمتد الرؤوس إلى مكتب أبلة نعيمة.. تلمح «الهام» السيدة المتزينة..

وسريعا ماتجتمع البنات فى الصالة.. تقول واحدة:

ـ الله الحكاية فيها خطوبة ولا أيه؟

ـ اطمئنى.. طول مافيها أبلة نعيمة..

ـ استنوا بس.. لازم أجيب لكم الخبر بنفسى

تتوجه إلى مكتب أبلة نعيمة وتطرق الباب فى خجل.. تقدم قرش صاغ إلى المشرفة وهى تقول: تسمحى ياأبله مفتاح التليفون

تتأمل فى نفس الوقت السيدة الجالسة.. وتنصت للعبارات الأخيرة فى حديثهما.. تأخذ المفتاح..

أم عادل تكمل حديثها لنعيمة:

أم عادل: الحقيقة أنا طول عمرى أسمع عنك.. الناس كلها بتتكلم عن أدبك وأخلاقك.. ده لولا أنت كانت الدنيا بقت بوظه.. أنا عارفة ايه الجيل ده؟

تداعب الكلمات غرور نعيمة وتبدو كالعذراء البتول

نعيمة: أنا فى الحقيقة باعمل كده عشان مصلحتهم.. همه مش عارفين مصلحة نفسهم.. لكن أنا فاهمه الدنيا عنهم.. وحامياهم وحياتك.. ولو أن فى الآخر الواحد مش بيأخذ حاجه.. كل واحده تتخرج.. وتشتغل وتتجوز.. ولا حد فاكر فضل الكبار عليه.

أم عادل: تمصمص شفتيها..

أم عادل: وحياتك يا أختى أنا سعيدة اللى اتعرفت بيك.. لازم أعزمك عندنا .. ده أنت تتأخذ منك النصيحة عميانى.

أبله نعيمة: زى ماقلت لك.. أنا كنت عايزه أرفدها.. لأن أنا ماعنديش بنات مايعه.. بس كنت مستنية لما أمسك عليها حاجة..

كمان كان صعبان على عادل ابنك قوى.. ده لسه صغير وساذج ودى أكيد طمعانه فيه..

تبتسم أم عادل ابتسامة صفراء.. وتخرج مودعة من أبلة نعيمة حتى الباب الخارجى.

الوقت عصر.. آمال وأحمد يجلسان فى أحد الكازينوهات بجوار النيل

أحمد: كان لازم أقابلك ياآمال بره الجريدة عشان عندى كلام عايز أقوله ليك.

آمال: أنا كمان كنت عايزة أقولك.. .. ..

يستعجلها: هيه.. تقولى ايه؟

آمال: كنت عايزة أقول إذا كان ممكن آجى الجريدة بدرى عشان أروح قبل الساعة ثمانية ميعاد بيت الطالبات....

يبدو وكأن أحمد قد أصيب بخيبة أمل لأنه كان يريد أن تقول كلاما غير هذا.. خيل إليه فى لحظة أنها ستبدأ فى الاعتراف بالحب.. يتمالك نفسه ويقول:

أحمد: على كل حال الموضوع أصله واحد برضه.. أظن مافيش داعى تقعدى تتعبى نفسك وتتحملى قسوة النظام فى بيت الطالبات.. المفروض يبقى لك بيت لوحدك.

تطرق آمال.. يبتسم فى ثقة ويشجعه أطراقها على متابعة الحديث وأن كان يبتعد عن محوره متعمدا حتى يحصل منها على اعتراف.

أحمد: أنا عجبتنى قصتك الأخيرة.. وان كنت معترض على النهاية.. مش معقول واحدة تضحى بحبها علشان العمل.

آمال يبدو عليها التحفز لأول مرة.. وتستمع له بدهشة

آمال: ازاى؟ إذا كان فى العمل ده كل حياتها.. وكل وجودها.. لازم الحب يساعدها فى طريقها.

أحمد: بس فى الحالة دى ماتبقاش بتحب.. عارفه ياآمال الست لما تحب تنسى كل شئ عن طموحها.. عن آمالها.. حبها بس يصبح محور حياتها وكل كيانها.

آمال (مقاطعة): أنا باستغرب انك تقول الكلام ده.. دى فكرة غلط عن المرأة

أحمد يبدو مستغربا لاندفاع آمال ولاتعجبه لهجتها فى الكلام.. يشعل سيجارة.. ينظر إليها ثم يسألها بإصرار وكأنه صمم أن يواجه قلب الموضوع..

أحمد: فى حالة زينا مثلا.. أنا شخصيا محتاج لإنسانة زيك رقيقة ممكن تفهمنى.. وتفهم طبيعة عملى.. ويكون وجودها هو المشجع لى أنا على المضى فى الطريق.. لازم واحد يفنى فى الثانى عشان يتحقق النجاح. افرضى أنى طلبت منك الجواز على الشرط ده... يكون ايه ردك؟

تطرق آمال مرة أخرى.. ويبتسم هو فى خبث.. وكأنه على ثقة من ردها.. آمال ترفع رأسها فى أسى ولكنها تطل فى عينيه بجرأة.

آمال: يأستاذ أحمد.. ده منطق أنانى جدا.. ده مش أحمد عزمى الكاتب التقدمى الواعى.. ده أحمد الشرقى المتخلف.. رغم أن العرض مغرى جدا.. ورغم اعجابى بك.. لكن أرفض فى حالة زى دى.

أحمد يطفئ السيجارة بقسوة ويهب واقفا.

* * *

مساء.. أحمد يقود عربته الصغيرة بعصبية.. والسيجارة لاتفارق شفتيه.. بجانبه آمال وهما صامتان.. آمال تحاول أن تقطع حدة الصمت بينهما.

آمال: أرجو أنك ماتفسرش كلامى لأى معنى بعيد.

أحمد (فترة صمت): لا أبدا.. بس أنا كنت بأوفر عليك مشوار طويل متعب

آمال (بأسى): أنا مقدرة عواطفك.. لكن على كل حال أهو ده طريقى ولازم أمشى فيه.. وبعدين لما أوصل.. وأنجح زيك يبقى يسعدنى أنى ألقاك وأنا انسانة لى وجود..

أحمد: كنت فاكر أنك حتفرحى.. دى فرصة.. بنات كتير يتمنوها

وتقف العربة أمام بيت الطالبات.. آمال تنزل وقبل أن تغلق الباب تطل برأسها إلى الداخل وتقول:

آمـال: ممكن تكون دى النهـاية بيننا. إلا إذا عـرفت أنك قـدام بنت جديدة..

تغلق باب العربة وتحييه برأسها ثم تدخل إلى ظلام الحديقة وتتركه حائرا لايلبث أن يعى موقفه فيدير محرك العربة ويسير بضيق.

آمال تقف لحظة فى الحديقة ترقب السيارة وهى تغيب.. تمسح من على خدها دمعة ساخنة انحدرت رغما عنها.

* * *

الصالة الكبيرة فى البيت.. البنات مجتمعة بعد العشاء.. الأنوار كلها مضاءة.. مرح ومذاكرة.

سعاد تجلس حالمة بجانب الراديو وقد انبعثت منه موسيقى راقصة.. تقف أمامها هيام وزينب..

هيام: حتعزمينا فى الفرح ياسعاد

سعاد: أمال ايه.. بعد الأمتحان على طول حنعمل حفلة كبيرة ليكم مخصوص

زينب: وطبعا أنت مش حاتذاكرى ولاتتعبى نفسك.. بس بقى اياك عادل ينجح السنة دى.

سعاد: آه هوه لازم ينجح.

تهلل مـجـمـوعـة من البنات وترقص عند سـمـاع أخـبـار الفـرح والحفلات.. مجموعة تكتفى بالهمس.. طالبة فى الطب تقول:

ـ طب واحنا ذنبنا ايه.. ورانا امتحانات

تدخل آمال.. تقابلها البنات بالهتاف والضجة

أصوات: تعالى.. تعالى ياآمال سعاد حتتجوز.. جوليت العصر الحديث

تبتسم آمال بصعوبة وتقول لها «مبروك ياسعاد»

سعاد تلاحظ وجوم آمال.. تنتحى بها فى ركن بعيد..

والضوضاء مستمرة فى الصالة.. البنات تقول «نزف» العروسة من هنا»

ـ ياسلام نفرح يوم فى البيت ده

طالبة الطب تلقى بالكتاب من يدها وتصرخ:

ـ يااخواتى مش عارفة أركز تفكيرى

تسخر منها هيام: ما تقومى تروحى أوضتك.. ولا مش هاين عليك الكلام الحلو؟!

ضحكات وضوضاء.. والراديو يرسل صفيرا حادا مزعجا.. فى الركن البعيد سعاد وآمال تتحدثان سعاد: طب وايه يعنى حد لاقى فرصة زى دى؟

آمال: لا يا سعاد.. أنا لازم أشتغل وأكسب.. مش أعتمد فى حياتى عليه.. عايزاه يحبنى عشان أنا انسانة ناجحة وكبيرة زيه مش يشفق عليه عشان أضعف منه..

سعاد: أنا مش فاهمة الفلسفة دى.. هوه بيحبك وانت تحبيه ايه لزومه وجع القلب ده ؟

تبتسم وهى حالمة وتكاد تطير من على الأرض.

سعاد: أد ايه الحب جميل.. والراحة أجمل.. حد طايل يتجوز ويستريح من الغلب.

تبرز أبلة نعيمة من الباب..

نعيمة: ايه الدوشة دى؟ والراديو مين فتحه بالشكل ده..

أظن الامتحانات قربت.. البيت ده طول عمره البنات اللى فيه بتنجح.. أنا مش عايزة تطلع سمعة بطالة على بيتنا.

واحدة من البنات تقول:

ـ أصل سعاد حتتجوز

تلمح سعاد فى الركن مع آمال تقول لها بصوت منذر.

نعيمة: وانت يا ست سعاد أرجو تيجى معايا المكتب تلتفت جميع الرؤس إلى سعاد ينتابها الفزع والخوف.. تستند الى ذراع آمال..

تخرج أبلة نعيمة وتترك الجميع فى وجوم..

آمال تشير الى سعاد بأنها ستنتظرها فى الصالة حتى تعود.. سعاد تسير ببطء وكأنها تخشى هذا اللقاء.

البنات تبقى فى الصالة يتساءلن عن سر دعوة المشرفة لسعاد.

سعاد ترتكن على باب أبلة نعيمة.. أبلة نعيمة تقف أمامها.. يدها في خصرها واليد الأخرى تشير اليها.

نعيمة: الحكاية زى ما قلت لك.. أم عادل جت هنا بنفسها وطلبت منى انى أمنعك عن ابنها عادل.. وكانت عايزة تعمل فضيحة.. سعاد تبكى.. فيشجع بكاؤها أبلة نعيمة أن تستمر.

ـ عمر ده ما حصل.. بقى لى تمنتاشر سنة في البيت ده.. عمر ما حد عمل كده. لازم أدى خبر للجامعة.. وأنا متأسفة اذا كنت مضطرة لاخذ اجراء عشان أحمى البنات التانية.

سعاد تحاول ان تدافع عن نفسها بضعف وانهيار.

سعاد: هوه اللى طلب يتجوزنى.

نعيمة: يتجوزك ازاى.. ده لسه حته تلميذ.. ثم انه من عيلة.

(تشير بيديها إلى فوق... دليل الثراء والعظمة)

الصالة الكبيرة.. البنات لا تزال مجتمعة.. آمال تقف في قلق وصوت الشجار يصل اليها من بعيد.. باب حجرة أبلة نعيمة يفتح ثم يطرق فى عنف.. تبدو سعاد فى بداية الصالة منهارة والدموع فى عينيها.. تواجهها العيون المتسائلة المستغربة..

تتجه إلى السلم دون أن تنظر لاحد وتصعد فى بطء وهى تنشج.

آمال تهرع وراءها وتسندها وهى تسألها ماذا جرى.. وجيدة تخف اليهم وتكاد تحمل سعاد.. سعاد تنهار على فراشها وتتملكها نوبة شديدة من البكاء.

البنات فى الصالة فى شبه ذهول.. تشتد موجة العجب والتساؤل عما جرى.

تتكلم البنات فى نفس واحد..

- دى عربية عادل كانت واقفة قدام الباب النهاردة.

- كان فيه واحدة ست عند أبلة نعيمة.

- لازم أمه..

- افتكرنا انها جاية تخطب سعاد أو تقول كده لابلة نعيمة.

تصعد شلة الى الدور الثانى.. وهن يقلن.

- لأ.. لازم أبلة نعيمة شافت شغلها.

- لازم برضه نعرف المسألة ايه.

سعاد فى شبه أغماء.. آمال ووجيدة يتعاونان على افاقتها ورشها بالماء والكولونيا.

وجيدة: أنا سمعت حسن الجناينى بيقول للدادة الكبيرة أن أبلة نعيمة سبت لها فى سعاد.

آمال: يعنى أم عادل كانت جايه تسأل على سعاد

يبدو وكأنها فهمت حقيقة الموقف.. وكيف حولته أبله نعيمة بحقدها وشرها.

البنات يندفعن الى داخل الحجرة..

هيام.. مالها سعاد يا آمال.

وجيدة محاولة أن تدارى المسألة: لا.. بس الظاهر دايخه شوية.

زينب: لكن أبلة نعيمة زعلتها ليه؟

آمال ترجوهم أن يخرجوا حتى تهدأ سعاد.. وتقدم لسعاد كوبة من الماء وحبة أسبرين وتضع أنبوبة الاسبرين بجانبها على الكومدينو.

تخرج مع البنات إلى الصالة.. وتغلق الباب على سعاد بعد أن تطفئ النور.

آمال تتحدث بصوت هامس مع البنات فى الصالة.. تبدو داخل حلقة كبيرة.. والبنات يبدو على وجههن الجد والاهتمام..

وجيدة تخرج من الحجرة وهى تقول:

ـ نامت والحمد لله.

تنظر ناحية السلم وتكمل حديثها..

ـ دى كانت حتموتها.. ما صدقت أم الواد تيجى الا ورصت لها كلام متنقى..

آمال تشير اليها أن تصمت.. والبنات يمسكن بها حتى لا يسمع أحد كلامها.

وجيدة: لا والله أنا ماعاد يهمنى.. دى حاجة تطلع الروح.

آمال: أصل الكلام فى الهوا كده ما عادش ينفع، نواجهها بكره ونعرفها ان احنا فاهمنها كويس.. وإن احنا مش ممكن نسيبها تلعب بينا كده.

وهمهمة من البنات وتأييد وحماس لاخذ خطوة ضد أبلة نعيمة..

الصباح.. النور يغمر الحديقة.. وجيدة تقف على الحجر وتتحدث همسا الى شعبان.

شعبان: ست آمال اديتنى امبارح الخمسة جنيه.. وادتنى كمان نص جنيه عربون جزمة جديدة.. الظاهر ربنا فتحها عليها.

وجيدة: آمال يا اخويا مش بتشتغل فى الجرايد.

شعبان : يابت وطى حسك

وجيدة: ايه.. هوه الشغل حرام ولا عيب.

صرخة تنبعث من الدور العلوى.. تنزعج وجيدة وتستدير.

بسرعة.. شعبان يهتف بها:

- شوفى ايه يا وجيدة.. جرى ايه؟

وجيدة تصعد السلم بأقصى سرعتها.

حجرة آمال وسعاد.. آمال تقف أمام سرير سعاد تهزها.. سعاد شاحبة لا ترد وأنبوبة الاسبرين فارغة وملقاة على الكومدينو بجانبها.

وجيدة تشترك فى الصراخ.. حجرات تفتح وتندفع منها البنات فى قمصان النوم أبلة نعيمة تندفع هى الاخرى ساخطة لترى سر هذه الضجة.. تقابل البنات بوجه مقلوب.. البنات يدفعنها ويصعدن.

نعيمة: ايه فيه ايه.. حصل ايه ع الصبح..

البنات لا ترد عليها.. تصعد السلم.. وبعد عدة سلمات تواجه آمال.. تعود الى الوراء.. آمال تتجاهلها وتنادى على نوال طالبة الطب.

ـ يا دكتورة نوال.. أطلبى القصر العينى ولا الاسعاف.. وتعالى لحسن سعاد فى حالة سيئة.

صراخ من البنات.. بكاء.. أصوات ساخطة ترتفع.. نعيمة لا تدرى ماذا تفعل.. تبدو الحيرة على وجهها.. تصعد تحاول الدخول الى حجرة سعاد التى تغص الآن بالبنات.. سعاد ممددة على السرير.. البنات من حولها فى عيونهن دموع وألم.. البنات يواجهن نعيمة بنظرات الاتهام والاحتقار يقفن أمامها لا أحد يفسح لها الطريق..

تبتعد نعيمة مهزومة حائرة.. أصوات من خلفها تقول:

ـ والله انوديها فى داهية

ـ لازم تدفع تمن عملتها.

لازم يكون آخر يوم لهما هنا

ـ آمال تواجهها.. وتقول بصوت واضح:

ـ أنقاذ سعاد وهو المهم دلوقتى..

تتقدم ومن خلفها طالبة الطب تحمل سماعتها وبعض الزجاجات.

أبلة نعيمة تدخل إلى حجرتها كاسفة البال.. محطمة.. حيث تواجهها الستارة الداكنة البالية التى تحجب شباكها وتحجب عنها النور.. تمسك برأسها وتنهار على أحد المقاعد.

نهار.. حجرة فى مستشفى.. سعاد راقدة على السرير بجانبها سيدة متوسطة العمر.. ورجل يبدو من مظهره انه موظف عادى.. السيدة تبكى بحرقة والرجل ياوسيها وينظر الى سعاد بعطف شديد.

أم سعاد تبكى وتقول: كده يا بنتى كنت حاتروحى فى شربة ميه؟

عشان شوية صداع تقومى تبلعى أنبوبة أسبرين بحالها؟

(يبدو من حديثها انها عرفت المسألة على هذا النحو)

الاب يضرب كفا بكف.

الاب: لا حول الله.. ده احنا منتظرينك يا بنتى فى الاجازة بعد الامتحان.. ده انت كل أملنا.. وأمل اخواتك الصغيرين.

سعاد تتألق فى عينيها الدموع وهى تنظر ناحيتهما بحب واشفاق.

آمال تتقدم من سعاد وتريح لها رأسها..

آمال: كفاية يا عمى.. الحمد لله جت سليمة وبكره سعاد تخرج من المستشفى وتبقى عال.

تقبلها الام وتنصرف مستندة على ذراع زوجها الذى يدعو لفتاته بالصحة وبأنه سيزور سيدنا الحسين من أجل الدعاء لها.. يخرجان.

سعاد ترفع رأسها بصعوبة.. وتقول لآمال:

- إبعتى لى الكتب يا أمال .. الامتحان قرب.

آمال: حالا تروقى.. وتشوفى مذاكرتك.

سعاد .. تهز رأسها بتصميم وتهتف

ـ عايزة الكتب.. أنا لازم أنجح.. كنت ناسيه حاجات كتير.

تجهش بالبكاء.. وتخرج آمال.

آمال تخرج إلى ردهة المستشفى.. تمسح دمعة بيدها.. تفاجأ بصعود عادل بسرعة.. وهو شبه مذهول.. آمال تتصدى له.

آمال: حضرتك رايح فين؟

عادل: سعاد.. جرى لها ايه؟

آمال: ولا حاجة.. أرجوك ما تدخلش عندها. أعصابها ما تتحملش صدمات تانية.

عادل: صدمة.. أنا مش فاهم ايه اللى حصل.. ماما حلفت انها ما قالت حاجة أبدا.

آمال (بسخرية): وأخذت الاذن من ماما قبل ماتيجى هنا؟

عادل يطرق بخجل وحزن.

عادل: يا آنسة آمال أنا ماليش ذنب.. سعاد عندى حاجة مهمة قوى. أنا مستعد أتنازل عن أى شيء عشان خاطرها.

(يكاد يبكى) أشوفها بس ولو من بعيد.. وكل حاجة تتصلح.

آمال تبتعد من طريقه وقد رق قلبها لحالة.

حجرة سعاد فى المستشفى.. سعاد تفتح عينيها.. تجد عادل منحنها عليها.. يخيل اليها أنها تحلم.. تغلق عينيها مرة أخرى وترفع يدها لتخفى عنها شبح الرؤيا.

عادل: سعاد.. سعاد يا حبيبتى.

سعاد (واعية): جاى تشوف جرى ايه.

عادل: حصل ايه يا سعاد؟

سعاد وهى باكية: لأ ما حصلش حاجة.. انت خدت الاذن من مامتك الاول؟

عادل: مش مهم ماما تعرف أنا فين.

سعاد ساخرة: خفت تقول لها؟

عادل: سعاد يا حبيبتى.. دى مش لهجتك.. أنا قلت لها انك الوحيدة اللى حسيت بحبها وما اقدرش استغنى عنها.. أنا محتاج لك يا سعاد.

سعاد: وهية صدقتك.

عادل: لازم تصدقينى.. أنا عمرى ما كنت جد كده.

ضحكة تأتى من الخارج تشبه ضحكة أم عادل.. سعاد تغلق أذنيها وكأنها تتذكر الموقف مع أم عادل.

سعاد: عادل.. كفاية بقى.. ارجع لها.. وخد بالك من مذاكرتك وشوف واحدة من عيلة زيك ترضى عنها مامتك.

عادل يركع أمام السرير.

عادل: سعاد.. بصى لى.. أحلف لك بايه.

سعاد تدير رأسها الى الناحية الاخرى وتخفى عينيها..

ينهض عادل.. يحاول يائسا ان يجد الكلمات التى يعبر بها عن اخلاصه وصدقه.

عادل: انت نسيتى حاجة مهمة جدا فى الموضوع.. نسيتى..

لا يكمل حديثه وتدخل الممرضة.

الممرضة: الزيارة مش أكتر من خمس دقايق.. دى تعليمات الدكتور.. عادل يلقى عليها نظرة طويلة وينصرف .. تخرج الممرضة من خلفه وتغلق الباب سعاد تفتح عينيها.. وتجد نفسها وحيدة فى الحجرة.. تبكى..

تحاول القيام بصعوبة.. تمسك بحافة النافذة التى فوقها .. تلمح عادل يسير مطرقا ترقبه وهو يبتعد.. الدموع لاتزال فى عينيها.. وتهتف باسمه.

على سلم المستشفى الخارجى.. تجد آمال أحمد عزمى فى انتظارها.. بائع جرائد صغير ينادى على جريدته ويحوم حولهما.

أحمد يبتسم لآمال ويقترب منها.. آمال تتوقف وتنظراليه فى دهشة ممزوجة بفرحة.

أحمد: ازى صحة سعاد ؟

آمال: أحسن.. والامل كبير.. لكن عرفت منين.

أحمد باسما: شوفتى قصتك النهاردة؟

تبدو الدهشة على وجه آمال.. ممزوجة بفرحة حقيقية..

أحمد يكمل حديثة: أنا عملت تعديل بسيط فى النهاية تنزعج آمال.. يبتسم وهو يقول:

- لا ماتخافيش.. تبين ان البطلة موهوبة.. وانها صاحبة أفكار.. لذلك اقتنع صاحبها بوجهة نظرها.. وفضل أن يسير معها نفس الطريق.

تضحك آمال.. يمد لها يده فتلقى بنفسها بين ذراعيه.

عنبر سنة أولى

هناك نوع من الحكايات والاساطير تتناقلها الاجيال المتعاقبة على بيت الطالبات.

على قمة هذه الروايات جميعا تتناثر قصة على، الجار الذى يقيم فى المنزل.. و هو فى الحقيقة يقيم فى الشرفة المقابلة للواجهة الخلفية للبيت.

هذه القصة تمتد جذورها من الماضى.. من اليوم الأول الذى اكتشف فيه الشاب أن المنزل المثلث القائم أمامه قد أُعدّ لاستقبال مجموعة ضخمة من البنات - وتتصل أحداث القصة الى الحاضر، والى اليوم الذى دخلت فيه آمال عنبر السنة الأولى..

عنبر سنة أولى يشغل أكبر جناح فى بيت الطالبات.. ومن التقاليد الشائعة أن تقيم فيه خمس من الطالبات المستجدات.

المستجدات والاقامة فيه بمثابة الدرس الاجتماعى الأول الذى تتلقاه البنت التى تريد أن تمضى سنى دراستها فى هذا المجتمع الصغير..

أن تعيش وسط هذه المجموعة وتكيف طباعها وتصرفاتها بحيث لا تسبب ازعاجا للآخرين.. فإنها بذلك تجتاز الامتحان الأول لكائن اجتماعى..

وبعد ذلك تنتقل إلى غرفة أخرى.. يظل يقل العدد حتى تسكن مع زميلة واحدة فقط فى حجرة مستقلة.

على الفراش المواجه للباب مباشرة تنام يسرية ادريس طالبة الطب.. وهى فتاة طويلة بيضاء.. عيونها خضراء ينبعث منهما بريق ذكاء خبيث.. وبشرتها يميل بياضها أيضا إلى اللون الاخضر..كان من عادتها أن تزم شفتيها دائما حتى ليخيل لمن يراها أنها تكتم ثورة هائلة لا تلبث أن تنفجر يوما ما.

كل تقاطيع يسرية ادريس كانت جميلة.. ولكن وجهها لم يكن جميلا على الاطلاق.. والتعبير القاسى الذى يجمد على ملامحه يعبر عن الحقد.. ويوحى بكراهية صاحبته للناس. حتى فى تلك اللحظات القليلة النادرة التى تبتسم فيها يسرية فان وجهها يبدو مكفهرا ثائرا..

ويسرية تبدو فى حالة قلق وانقباض شديد.. وقلما تشارك فى الاحاديث التى تدور فى الغرفة.. بل وهى تتجاهل كثيرا من الإسئلة و الكلمات التى توجه اليها مباشرة.. ان لها عالمها الخاص.. وجوها المغلق ولا تسمح لاى انسان أن يعبر خطوات داخل مشاعرها أو نفسها.

ورغم أن يسرية لم تكن فى السنة الأولى.. ورغم اقامتها ثلاث سنوات فى البيت الا انها كان المرة الأولى التى تغادر فيها البدرون فكان لابد أن تمر على هذه الغرفة أولا.

يسرية كانت تعيش فى حجرة البدروم بمفردها وكانت سعيدة بهذه العزلة، ولكن الرومانتيزم أصابها وألزمها أن تودع وحدتها الهادئة..

وحجرات البدروم كانت تخصص فى العادة للمطبخ وصالات الطعام والمخزن.. ولكن يسرية وضعت يدها على حجرة بعيدة متطرفة كانت تعيش فيها مع هيكل عظمى كبير.. وجمجمته.. وكان جو الغرفة رهيبا غريبا مما جعل البنات تفر من صداقتها أو من محاولة الاقراب منها.. كن يسمين الجمجمة التى توسط مائدتها «رأس عبدالباسط» ويطلقون الاشاعات عن الرأس.. عبدالباسط نفسه..

شىء آخر فظيع كان يقيم فى الحجرة غير عبدالباسط والهيكل العظمى.. منبه ضخم تضبطه دائما على الساعة الرابعة صباحا..

ويظل يزأر طوال الليل فى بدروم البيت ويصيب البنات بالأرق والقلق ثم يرتفع عند بداية الخيوط الأولى للصباح.. فيصحو البيت والجيران.. وتسترخى يسرية فى سريرها وكأنها تسمع صيحات احتجاج لذيذة.. فيداعبها النوم وتبدأ تستسلم للأحلام!

وعلى الفراش الثانى كانت ترقد فاطمة.. قصيرة بارزة الجبهة والاسنان..

والناس فى رأى فاطمة أما طيبون أوأشرار.. والبنات لديها أما تقيدهم التربية وحسن الاخلاق وأما عديمات التربية فاسدات الطباع..

لاوسط.. ولا تحليل و تفسير لاى موقف ومحاولة تقدير الدوافع والظروف كان آخر عمل تقوم به فى يومها هو أن تجلس هكذا فى

سريرها وتعد قائمة بالبنات المؤدبين فى الدار.. والأخريات..

وكل ليلة بالطبع كانت تصدر حكما بالاعدام من القائمة الطيبة.. وتدين صاحبتها باللون الأسود الرهيب.

وأحكامها كلها متعنتة.. ضيقة الافق.. جامدة بحيث أصبح مجرد أن تتحدث بنت عن الحب جريمة دامغة..

أما أن تعرف الفتاة رجلا فذلك عار لا تمحوه التوبة ولا الندم

ودائما تتكلم عن الفضيلة.. وعن الأخلاق.. والنفوس التى فسدت والضمائر التى ماتت.. والجو الخانق المحيط بها من كل جانب.

وهكذا كن نتساقط صرعى من قائمتها النظيفة.. وتدمغنا فى القائمة السوداء.

وعلى رأس هذه القائمة تتبوأ هيام مكانا ممتازا..

هيام تملك من المواهب ما يجعلها جديرة - فى نظر فاطمة - بمنصب الملكة لخطايا الناس.. فهى جميلة قبل كل شىء.. جميلة لدرجة السحر..

لم تكن مثل يسرية دقيقة الملامح و ملونة العينين.. على العكس.. كانت سمراء ملامحها مؤكدة ومبالغ فيها بعض الشىء.. ولكن الانسان لا يمل النظر اليها.. كانت تقطر حلاوة وعذوبة..

وهى لا تمل النظر الى نفسها فى المرآة.. تتأمل جسدها الفاتن الذى ينتفض دائما بالصخب والحركة.. وتدور كالنحلة من الشباك إلى المرآة.

هيام ايضا كانت تحمل نفسية طفلة.. طفلة حلوة مرحة.. منطلقة.. تعبر عن كل رغباتها ببساطة وجرأة وتتملكها حمى النزوات.. وتستبد بها الرغبة فى المغامرة والكلام كالحركة احدى هوايات هيام.. فهى تعلق كل شىء.. وتصف ما تراه.. وتصرح بما تحس به..

كانت لا تصمت ألا اذا أصبحت فى الحجرة بمفردها مع يسرية ادريس.. فكانت تدرك أنه من المستحيل اخراج يسرية عن صمتها.. وانغلاقها.. وهنا تدور المسكينة حول نفسها.. ولا تجد أمامها تسلية سوى الشباك.

* * *

هيام سمعت أيضا عن حكاية على.. الجار الخالد كما كانت تسميه البنات.

كانت تضحك وهى تتخيل حياة الشاب المعلقة بالفراندا المواجهة تماما لشباكها.. انه يأكل ويقرأ.. ويشرب الشاى.. ويعيش حياته كلها من خلال النظر إلى البنات حتى عندما كان خاله الكبير يزور العائلة ويضطر إلى أداء الصلاة خلفه كان يصلى وظهره فى البلكون.

المهم ألا يغيب لحظة عن ذلك العالم العجيب الذى يفتنه والذى يريد أن يلعب فيه الدور الأول.. فى كل القصص. والاحلام.

على لم يكن الإبن الوحيد لأسرته.. كان هناك ايضا حسين الذى يصغره بعدة سنوات.

ولم يكن عاطلا.. بل يعمل هو وحسين طيارين..

ولكن فرق كبير بين أخلاق الاثنين..

حسين لم يكن أحد ليحس بوجوده.. كان رقيقا شاحبا.. ويفضل الصمت ويمضى معظم أوقاته فى الغرفة المجاورة لعلى.. ولكنه يقرأ فى كتاب..

ودائما شباكه نصف مفتوح.. ونصف مغلق..

ذلك التناقض الضخم فى شخصية الشابين كان أحد الجوانب المثيرة فى الحكاية كلها - وماذا تقول الحكايات عن على؟..

أنه يحب البنت الجديدة التى لابد أنها سمعت عن مغامراته.. عن قصص فوزه ولابد أن يبهرها ذلك الجو الجديد..

ويبدأ فى الاهتمام.. ولطول بقائه فى الشرفة أصبح يكون دائرة معارف عن طباع كل بنت..

ويوهم الواحدة أن ما يفعله من أجلها وعذاب الليالى.. وبقاءه فى الشرفة انما لجذب انتباهها..

وكثيرا ما تسأل الساذجة نفسها: هل يمكن أن يحدث هذا..

أن يغلب على امره الدون جوان..

يبدو ان تجربتى هى الشىء الحقيقى الوحيد الذى حدث للجار..

شعور رائع بالفوز وسط مجتمع النساء..

وتبدأ تبادله الاهتمام.

وبعد أيام قليلة يغلق الشباك بعنف فى وجهه على.. ويكون هو قد اهتم بشباك آخر..

وعلى يحـاول طريقـتـه لكل من تقـيم فى هذا الجناح.. حـتى الخادمات..

ويومـا طردت المشرفـة خـادمـة بسببـه.. وطلبت أخـرى أن ترتدى الملاية اللف أثناء خروجها ودخولها بعد ان أصابها جنون أنها أحلى من كل الطالبات.

وعلى يبدأ برنامجه اليومى بالوقوف فى البلكون.. ثم يأخذ الفوطة ويذهب إلى الحـمـام.. ويعود بـعدها وقطرات الماء تتساقط منه وينشف وجهه وقدميه فى البلكون أيضا.

يتـوارى قليلا ثم يعود مرتديا البدلة الانيقة اللامعة ويقف ينتظر العربة التى تقله إلى الشركة أو إلى المطار..

وهو يظل يشير ويبتسم ويعلن أنه سيسافر ويعود بعد أسبوع.. بعد عشرة أيام.. ويظل هكذا حتى يغيب مع العربة فى نهاية الطريق..

واذا حدث وسمعن طائرة فى السمـاء يقلن «لقد عاد ليشرف على القلعة من جديد»

وتتنبأ احدى الخبيثات بأن على سيلقى مصرعه يوما على أعتاب بيت الطالبات لأنه ينحرف دائما بطيارته فى هذا الاتجاه.

وكانت هيام تضحك وتقول:

- ده حتى شكله وحش..

لو كان أخوه الصغير بيعمل الحركات دى كان يبقى معقول.. لكن أيه الواد ده؟..

وتزجرها فاطمة: وانت أيه موقفك فى الشباك طول النهار

وتضحك هيام.. ويرتفع صوتها بالغناء

وتنقض فاطمة على الكتاب لتذاكر بصوت عال حتى تقلع الهام عن الغناء.. وكان من المضحك ان تسمعها وهى تحفظ تاريخ الحروب والثورات.. وأن تقول:

- بنات زفت.. أخلاق مفيش.. الدنيا خلت من الشرف..

وترفع تهانى رأسها عن الكتاب بفزع.. ونظرات زائغة مروعة

- فين الكلام ده يا فاطمة.. مش موجود عندى.. الاستاذ قال كده.

وتصرخ فاطمة:

- أنا اللى باقول.. خليك انت فى حالك.. صمى.. صمى لأجل أن تنجحى فى الامتحان.

ورغم أن فاطمة كانت تزجر تهانى دائما الا أنها الوحيدة التى تنال عطفها وتصاحبها وتبحث لها عن كل الاشياء الضائعة منها..

تهانى كانت فى حالة ذهول ونسيان دائما.. تقوم لتصنع الشاى.. وتبدأ فى الدوران حول نفسها والبنات يضحكن.. حتى يسرية لم تكن تملك نفسها من الضحك أحيانا. وتقول تهانى بحيرة:

- بس هيه الكباية فين.. فين الكباية.. راحت.. كانت هنا.. من شوية شايفاها قصادى..

وتناولها لها فاطمة..

فتبدأ فى البحث عن الملعقة..

ـ يا ملايكه. يا ملايكه قلبوا بيها وهاتوها ..

كان من عادتها أن تسأل الملائكة عن كل الاشياء الضائعة أو التى نسيت أين وضعتها حتى أنها دخلت مرة الى الحمام ونسيت تأخذ الفوطة وقطعة من ملابسها الداخلية وظلت ترتجف من البرد أكثر من ساعة وهو ترجو الملائكة أن يستعملوها ويردوها لها ثانية.

التصرف الوحيد الايجابى الذى كانت تفعله دون أن تستشير الملائكة هو أن تشد حبل شيش الشباك بعنف فينزل كالمقصلة على حافة الشباك.

كانت تفعل ذلك بطريقة آلية دائما.. كلما كان الشباك مفتوحا.. وهيام لسبب ما ليست واقفة فيه.

ويهبط الشباك بصخب.. وتبتسم فاطمة فى لذة.. وهنا تبرز لها هيام فجأة وتعيد فتحة بسرعة وهى تقول ساخرة

ـ يا ملايكة افتحولى الشباك قوام. يا ملايكة..

* * *

فى صباح أحد الايام كانت هيام تقف كعادتها فى الشباك وتضحك وعلى يشير اليها انه سيطلبها فى التليفون..

واختفى على داخل شقته لحظات.. دق بعدها جرس التليفون.. وتعالى نداء وجيدة عليها.

واحتارت .. هل ترد؟.. ماذا تقول؟.. هل تغلق السكة فى وجهه وتطلب منه ألا يحدثها مرة أخرى..

ولكن لماذا لا تحاول أن تعرف سره؟ وهو يتبعها باهتمام منذ وقت طويل.. وهو غارق فى تفاهته.. هل يدرك أنها تهتم بأخيه.. وتحب رقته وعزلته.. بل وتقف كثيرا من أجله..

ما الذى يحدث لو أنها غامرت وعرفته.. سمعه يحكى قصته.. لقد سمعت قصته من وجهات نظر مختلفة.. ولكن كيف يتحدث عن نفسه.. يصف أفعاله.. وإذا سمعته يتحدث فلابد أن يأتى ذكر حسين..

وعندما وصلت بالتفكير إلى هذا الحد.. أسرعت بالنزول كانت المشرفة تمر فوجدت سماعة التليفون مرفوعة..

وسألت: عايز مين يا أفندم:

- آنسة هيام..وزمت المشرفة جبهتها ورأسها والصوت يبدو مألوفا لديها:

- تقول لها مين؟

وأجاب الصوت المعروف نفس اجابته الخالدة:

- ابن خالتها..

ووصلت هيام فى هذه اللحظة وأعطتها أبلة نعيمة السماعة وهى ترقبها بريبة وشك كبيرين.

وتلكأت وهى ترتب بعض الزهور الموضوعة فى الصالة.. لتنصت إلى الحديث وفكرت هيام بسرعة.. يجب أن يبدو كل شىء طبيعيا..

الأمور تتأزم تماما اذا دخلت أحدى البنات فى دائرة اهتمام أبلة نعيمة و ارتيابها..

ورحبت هيام «بابن خالتها»

- هيام أنا مستنيك الساعة أربعة على ناصية الشارع..

- لازم تيجى.. عايز أقولك حاجة تهمك قوى..

اسمعى.. المشرفة عرفت صوتى.. لازم أقولك حاجات عشان ما يقدرس حد يضايقك بعد كده.

ووافقت هيام ظلت تدور فى الحجرة.. وتكاد تفكر بصوت عال.. واختفى على تماما من الشباك.. وبرزت الاسنان الامامية من فم فاطمة وهى تحس ما حدث.. وتكاد تتنبأ بما سيحدث عن قريب.

وبين الخليط المتنافر من الافكار التى كانت تدور فى رأس كل منهما دق جرس الغداء.. ونزل الجميع إلى حاله الطعام ماعدا يسرية التى كات تعطى ظهرها للجرس وللبنات. كان الروماتيزم قد عاودها مرة أخرى وأرقدها فى السرير وهى تتغلب على الالم بالتهام أحدى المجلات.

وسألتها آمال: تحبى أجيب لك الغدا هنا..

وفوجئت بصوت آمال.. وأجابت باقتضاب:

- اذا سمحت قولى لدادة وجيدة تطلعه..

وظلت تتأمل زميلتها وهى تختفى وتغلق من ورائها باب الغرفة

لماذا تحاول آمال أن تكون صديقة لها.. ولماذا تحمل صوتها كل هذا الحنو والرقة..

ان الحنان يثيرها الآن.. ليست فى حاجة إلى اهتمام أحد أو اشفاقه.. جاءت كل تلك العواطف متأخرة جدا.. فى وقت كاد القلب فيه يتجمد وتجف عواطفه ظاهرة غريبة فعلا..

لماذا تهتم آمال بيسرية.. ؟..

آمال كانت تحمل دائما على القسوة والعنف..

بل كانت تصف يسرية أحيانا بأنها قاسية.. جامدة المشاعر.. وأنها لا تتصور أن مثلها يصلح لاحتراف مهنة الطب.. وهى تشفق على مرضاها من الآن..

ولكن يبدو أن شعورا ما قد جذبها ناحية يسرية الآن.. وتدافع عن عزلتها وانطوائها بل وتختم أى حديث يدور فى وجودها بأنه من يدرى الظروف التى تجعل يسرية بهذا الشكل.

وبدأ الهمس يسرى بين أنحاء البيت.. ما الذى يجمع بين يسرية وآمال وأيهما تعطى فكرة خطأ عن حقيقتها هذه الظاهرة كانت تروع يسرية أيضا.. وتجعلها تشرد ولا تستطيع الاستغراق فى قراءة الكتب والمجلات الطبية التى بين يديها بكل نهمها واستغراقها فى القراءة كما كانت تفعل فى الماضى.

هى بطبيعتها تسئ الظن بالناس.. وتعتقد أنه لا يمكن أن يعطى انسان أى شىء من نفسه أو عواطفه للآخرين الا بذافع من تظاهر أو لجنى مصلحة خاصة.

آمال تصر على الاهتمام بها.. على معاملتها برفق وتجذبها خارج نطاق الوحدة التى فرضتها على نفسها..

وهى تتبادل معها الحديث أحيانا.. أو تقف لتتصفح المجلات الطبية الكثيرة حتى عندما كانت جمجمة عبدالباسط تسقط من الكومدينو وتصرخ بقية الزميلات.. كانت أمال تسألها برفق ان تخفى عنهم هذا المصير التعس للانسان..

وطرق باب الغرفة.. ودخلت وجيدة بالطعام.

وجيدة كانت لا تتبادل مع يسرية كلمة واحدة وتعتقد انها متعجرفة.. باردة سيئة الطباع.. كانت فقط تخدمها بصمت وتتحاشى الاصطدام بها.

لكنها تقف لتحييها الآن.. وتسألها عن صحتها. وتضع أمامها الطعام.. وتكاد تقترب منها لتعينها على الجلوس.

وانتفضت يسرية جالسة.. وأخذت تأكل وهى تفكر.. لم تكن تتذوق الطعام.. أو تحس بلذة.. المكولات لديها تحولت الى فيتامين س و ج.. وأملاح..

لا شيء أكثر من هذا.. وهى تبتلع ما يقدم اليها بلا تذوق.. وبلا حماس.

واندفعت هيام داخلة الى الحجرة.. فتحت المرآة وأخذت تتمايل.. وتهز جسدها ورأسها.. ثم تقف امام المرآة وتعود لتهمس كلمات غير مفهومة وكأنها تتحدث الى شخص أمامها.

معنى كل هذا أن هيام تستعد للخروج..

وابتعدت يسرية عنها بناظريها.. وظلت تتأمل خواطرها وهى تمضغ الطعام.

دخلت فاطمة تتبعها تهانى.. وقالت تهانى بمجرد دخولها «هيه ننام يا فاطمة..»

وتأملت فاطمة حركات هيام طويلا وقالت

- لا.. تعالى نذاكر فى الجنينة.. ونسلى روحنا بالمناظر. تسللت هيام بعد أن ارتدت ملابسها وتزينت.. كانت تحمد الله فى سرها أن رحمها من نظرات فاطمة المستريبة..

بقيت آمال ويسرية بمفردها فى الغرفة.. وساد بينهما الصمت..

ووقفت تتأمل نفسها فى المرآة.. وخرجت

وسألتها بعد فترة:

- عجبك الاكل؟

وهزت يسرية رأسها دون أن تنظر إلى وجه آمال.

وتمهلت آمال بعض الوقت ثم قالت:

- دى أول مرة يعملوا لنا كفتة لطيفة..

لكن يظهر أن الأطباء أحياناً لا يستمتعون بالاكل.. لأنه فى نظرهم مجرد مواد عضوية وبس

وابتسمت يسرية رغما عنها..

صوت آمال وهى تتحدث اليها يؤثر فى نفس يسرية ويجعلها تشعر بانجذاب وتدرك أنها تريد أن تتسلل الى أعماقها.. وتحتضنها نفسيا..

فى الحقيقة كانت آمال تعجبها.. لكن المأساة تكمن داخلها.. هى التى نستريب نوايا الناس وتثار شكوكها جميعا اذا دخلت ضمن نطاق اهتمام اى انسان.. تقاوم بعنف أن تبيح نفسها المغلقة منذ سنوات لكائن غريب.. حتى لو كان له كل رقة آمال.. وكل الحنان الذى يطل من عينيها.

قالت وكأنها تهمس لنفسها:

ما فائدة أن يستمتع الانسان بأى شيء؟.. اللذة شيء عابر.. حالة تنتهى ويبقى فى النفس طعم مرير.

وقالت آمال بهدوء:

- مهما كان مذاق الحياة مرا.. فان الحياة ذاتها جديرة بأن نحياها ونحبها ونتحمس لها.

بالفكر والارادة يستطيع أن يهزم الانسان المشاعر المحطمة.. وينظر للدنيا بمنظار بهيج.

وبدا أن يسرية قد أثارها الحديث.. وبدأت تتحفز للهجوم.. وتتحاش النظر الى عينى آمال.. ،لكنها ضغطت خلجات وجهها.. وعادت إلى انكماشها وهى تقول:

- هل حدث أن تألمت ذات يوم..

وكادت الدموع تطفر من عين آمال.. قالت برثاء

- انسان لا يعرف الالم كائن غير موجود..

وسكنت يسرية تماما.. ظلت مستلقية على السرير وكأنها تجمدت.. ووجهها برزت كل قسوته وكل آلامه.. ونهضت فجأة لتلقى على آمال السؤال الذى لابد أنه كان يدور فى ذهنها طوال الوقت:

ـ لماذا تصرين على جذبى للحديث..

وأجابت آمال: نا أحب حديث الناس الاذكياء.

تدلت رأس يسرية.. ولمعت عيونها الخضراء بدمعة لم تسمح بها وقالت:

ـ كان من الممكن أن تغيرى رأيك.. لو واجهت موقفا مؤلما.. لو تشعرين بالاهانة وأنت لا ذنب لك.. ساعتها تعرفين معنى الالم.. ومعنى المرارة التى نظل نلعق مذاقها بطعم الحياة..

لو قدر أن يحدث لك.. ما حدث لى.. ذات يوم.. وكنت طفلة صغيرة مرحة.. أسير كل صباح مئات الامتار لأصل إلى مدرستى فى القرية المجاورة..

بساقى النحيلتين كنت أخوض الطين.. وأغوص فى الاتربة.. ولكنى كنت انطلق مع فراشات الصباح أقفز وأغنى.. حتى أصل إلى المدرسة..

كنت أعرف أن المدرسة هى الجنة التى لابد أن أنجح فى الدخول إليها دائما.. أحساس بأنها المستقبل.. والدفئ والأمان..

وبرقت عيناها بالدموع.. وهى تبتلعها وتتذكر الماضى.. ووصلت متأخرة ذلك اليوم.. وعندما دخلت وجدت جوا غير عادى فى الفصل.. الناظره والمدرسين.

وشعرت بخوف شديد.. خوف لم أشعر بمثله فى حياتى. وودت لو انطلق مرة أخرى فى الحقول.. والطين..

أمرتنى الناظرة أن أذهب إلى مكانى.. وحسبت أنى نجوت..

ولكن أبلة الناظرة ظلت تقف أمامنا عابسة كأن عينيها تقذفانى بالشرر..

وقالت: لابد أن تظهر المسروقات.

لابد أن نعرف من اللصة الحقيرة التى تسرق كل شىء فى المدرسة.. النقود والأدوات.. والاكل.

ابنة العمدة سرق من درجها كتاب وقلم ثمين.. العمدة بنفسه جاء إلى المدرسة ليبلغ..

وبدأت عملية التفتيش.. جاء دورى وحاطوا بى.. فتحوا الدرج ووجدا الكتاب هناك..

صفعتنى الناظرة: أين القلم؟

ورفسنى أستاذ الدين: قولى يا بنت الـ..

مد مدرس الحساب المؤشر حتى كاد يخرق عينى.. بأه أنتى اللى منفضنة المدرسة.

ووقفت أرتعد وسط لجنة التفتيش.. أنا لا أعرف شيئا مما يحدث لا أعرف حكاية القلم ولا الكتاب ولا من الذى وضعه فى درجى..

وتأملوا ملابسى الرقيقة وحذائى المخضب بالطين

ـ معقول.. شكلها حرامية..

ودق الجرس دون أن يكون موعد انتهاء حصة.. أو انتهاء أخرى واجتمعت المدرسة كلها فى الفناء..

ووقفت كعود صغير أتمايل تحت وقع الصفعات..

ومدرسة تغنى والبنات ترد خلفها: الحرامية أهى.. الحرامية أهى..

توقفت يسرية عند هذا الحد من الحديث.. ابتلعت دموعها طويلا ولكنها سالت رغما عنها.. وتوارت تمسح دموعها وكانت آمال تدفن وجهها بين كفيها هى الأخرى..

تخشى أن تجرح دموعها شعور صديقتها..

وتحفزت يسرية مرة أخرى..

ـ الناس كلهم طغاة.. ظلمة.. لم يرحموا طفلة صغيرة لاذنب لها،، وعشت لا أثق بأى أنسان يطاردنى فى أفق حياتى الشعور بالظلم والاضطهاد.

ظلت تلك السحابة السوداء تخيم على مشاعرى وأيامى وتصبغ كل أفكارى لم أستطيع أن أعلوا عن الألم يا آمال..

لم أستطيع أن أنسى.. لماذا تألمت بهذا الشكل.. وهناك عشرات من الظالمين يمرحون ويتمتعون بالسلام والحرية.

الحياة قائمة على الخداع.. على الظلم..

وقالت آمال بصوت باك..

ـ الطبيعة قوة عمياء لا تعطى بقدر ما أتت من ذنوب.. ولكن يوما لابد أن تنتصر الحقيقة..

لأنك ظلمت مرة وأنت بريئة.. لا يبرر أن تدينى الحياة كلها.. أن تحكمى على نفسك وتظلميها أكثر..

وهزت يسرية رأسها بلا اقتناع..

ـ أى حقيقة.. ما معنى أن أتألم بلا ذنب..

وكانت آمال تستعد لمناقشتها.. حين دخلت الحجرة فاطمة فجأة..

واندفعت بعدها تهانى.. وقالت فاطمة:

ـ هيام قابلت الواد على.. وركبت معاه العربية على ناصية الشارع.

بنات ماعندهاش أخلاق.. أنا كنت عارفة نتيجة وقفتها فى الشباك طول النهار.. والله لقول للمشرفة تسمكر الشباك ده..

* * *

اقترب موعد العشاء ولم تعد هيام..

ودق الجرس قبل موعده بنصف ساعة.. وقالت أبلة نعيمة انها بكرت فى العشاء لأنها وصلتها تذاكر دعوة إلى مدينة الملاهى وستصحب البنات إلى هناك..

وضجت الصالة كلها بالمرح والصخب..

ليلة مسموح فيها بالسهر.. وليل القاهرة المثير..

ستنطلق البنات.. ويمرحن.. ولا أحد يخشى مرور الوقت.. والساعة المقدسة التى يجب ان تعود فيها كل سندريلا إلى البيت.. والا فانها تجرد من ثياب الاحترام.. وتمزقها الألسنة والتعليقات

وسألت آمال يسرية:

- حتروحى معانا

وقالت يسرية باقتضاب.. وقد عاود صوتها رنة النفور والارتياب

- لأ.. أنا ما أحبش الأجواء دى.. وكمان أنا تعبانة.

وقالت آمال بصدق:

- طيب أفضل معاكى..

واحتدت يسرية:

- أرجوك.. الحكاية مش محتاجة لتضحية.. وكمان أنا أفضل تسيبينى لوحدى.

وتركتها آمال بمفردها..

وذهبت مع البنات وأبلة نعيمة الى مدينة الملاهى.. كانت تتأمل الأنوار المضيئة فى شوارع القاهرة. والسيارة تنقلهن الى الحفل..

الجو كله يوحى بالمرح والانطلاق ولكنها كانت تحس بقلق غامض يتسلل إلى قلبها..

لقد ظلت ليالى طويلة تحلم بالتجول بحرية فى الشوارع الحبيبة بالليل..

ولكن ها هى تمارس التجربة المثيرة التى عاشت خيالها.. ثم لا تبتهج كثيرا بها..

لماذا عودوهن أن يخفن دائما من الليل،، ان ما يحدث بالليل يمكن أن يتم فى وضح النهـار.. ومـا بداخل الرءوس فـقط هو الذى يلون الأشياء..

وهى الآن تسير وسط القطيع الكبير واحساس القلق يتضخم داخلها مع كل الصخب والضجة والتى يثيرها اللعب والمراجيح..

وصوت المشرفة يضيع فى الضجة وهى تطلب أن يسرن معا ولا يتفرقن فى ذلك الزحام..

وتعبت البنات من كثر الضحك والاشتراك فى الالعاب.. واقترحت واحدة أن يذهبن الى البوفيه..

إلى البوفيه لتناول بعض المشروبات.

وقبل أن تدخل آمال إلى الخيمة المقامة فى نهاية الحديقة للبوفيه سمعت فاطمة تصرخ:

- شايفين هيام فين؟..

- ومع مين؟..

وأغمضت آمال عينيها كى لا ترى.

استطاعت فقط أن تتصور ما حدث.. وما يجرى حولها الآن..

مسكينة هيام..

فى اللحظة التى حاولت أن تمارس نزوة صغيرة عنت لها.. تذهب مع الجار إلى مدينة الملاهى فيتصادف أن تصل أبلة نعيمة دعوة ويذهب بيت الطالبات بأكمله ليشاهد الجميع حماقة هيام..

وتلعنها الشفاة وتلوكها الالسن.. وتزيح أبلة نعيمة البنات حتى تصل إلى مدخل البوفيه.. وتنظر بعينين ملؤهما الغضب والادانة السوداء..

وتصرخ فى البنات: حنرجع.. بسرعة يا بنات..

ويسير الموكب حزينا ثائرا مشحونا تتفاوت أحكامه القاسية وكلها تحيط برقبة هيام.

لانها ساذجة.. ولانها بسيطة.. ولانها عبيطة حين إختارت مدينة الملاهى مكانا للقاء..

لو أنها أكثر خبثا أو حذرا لاختارت مكانا مأمونا أو متواريا عن الانظار..

ولأنها ضبطت فالألسنة كلها تدينها الآن.. اما اذا كانت خرجت وفعلت ما تريد دون أن يراها أحد.. فهى آمنة وهى فاضلة فى نظر الناس..

وهكذا تتأرجح الفضيلة بمقدار الحذر والتستر اللذين يرتكب بهما الحدث..

وجاءت هيام بعد لحظات.. شاحبة.. ساهمة..

ألقت بنفسها فى سريرها باهمال.. أخذت تضحك وتبكى فى آن واحد..

ولأول مرة تهتم يسرية بما يدور خارج كيانها وتسأل ماذا حدث؟

وتحكى لها آمال..

- ما رأيك الآن يا يسرية فيما حدث.. والالم الذى تعانية هيام.. وشعور المرارة التى تتذوقها..

والجلادون يقفون حولها.. زميلاتها.. نفس الصغيرات..

نفس سن المرح والانطلاق.. والنزوات...

الكل الآن ارتدى عباءة القاضى.. وأصدر الاحكام..

هل يكون ذلك سببا كافيا لان تنهار هيام.. لان تغلق عليها أبوابها النفسية وتتقوقع.. وتقيم الاصداف الخشنة حول نفسها حتى لا يغزوها الناس بعد ذلك..

وقالت يسرية:

- حتى ولو شعرت الهام بقيمة الالم.. وتسلل سم الاهانة ومرارتها الى تذوقها للحياة.. فلا شك أن هناك عزاء..

بعض العزاء..

لأنها فعلت شيئا.. لأنها حاولت أن تخرج عن المألوف.. تمردت أو ثارت وهى يمكنها أن تتحمل النتيجة الآن.. وأن تكيف تصرفها كرد فعل لايمانها بما تفعل أو ترتكب من أعمال ولكن أى شعور مر كان يسحقها لو وقعت عليها كل الاهانة علنا ودون ان ترتكب ما يسحق العقاب..

لماذا تثقل الحياة دائما على الابرياء.. وتترك الظلمة دون عقاب.

وينام بيت البنات هذه الليلة مروعا فزعا يموج بالقلق والحيرة لا يستطيع أحد أن يتنبأ عن أى اجراء تتخذه أبلة نعيمة.. ولا مقدار المتاعب التى ستتعرض لها هيام.

وعندما تبدأ خطوط الصباح الأولى تزحف على البيت..

تدوى فى الشارع صرخة ملتاعة..

وتقوم البنات جميعا.. وفى لحظة واحدة.. والصرخات تعلن ان شيئا مريعا.. شيئا غاية الألم والحزن قد وقع على الأرض..

والوجوه شاحبة.. والنوافذ تفتح بسرعة والكل يجرى ويسأل ماذا جرى..

والصرخات تتعالى من المنزل المقابل..

على ليس فى الشرفة..

لكن الحزن يتعالى من داخل شقته..

ما الخبر؟..

وتقول وجيدة باكية.. مسكين..

الطيارة وقعت بحسين أخو على ابن الجيران..

حسين..

الشاب الخجول الرقيق.. الوديع.. الانسان الطيب.. لماذا يموت مبكرا ولماذا يموت بهذا الشكل..

وتبكى البنات..

وتصرخ الهام وهى محمرة العينين.. اذا كان لابد من الموت فلماذا لم يمت على؟..

على الشرير.. التافه.. لماذا لا يموت..

هل يعاقب حسين بذنوب أخيه.

وتنسى وجيدة جرس الافطار.. ولا أحد يغادر حجرته.. الكل مروع.. والكل يبكى

هيام تجد متنفسا عن أحزانها..

وتنهض يسرية وتقف فى وسط الغرفة.. تضبط الم الرومانيزم بكفيها لكن يبدو أنها لا تهتم به كثيرا..

ولأول مرة فى حياتها تبدأ حديثا:

- ما معنى كل هذا؟..

لماذا يموت البرئ.. يعاقب الناس الطيبون

كل البراءة.. الاخلاق.. والتفوق.. ما جدواها اذا كان الموت نهايتها..

والموت بهذه الطريقة البشعة.

وتوقفت يسرية فى وسط الغرفة فجأة.. وعندما مرت آمال بها أمسكت بيدها فى تشبث..

لقد روعتها فكرة مفاجئة..

بالرغم أن المناسبة كانت حزينة للغاية.. الا أنها استطاعت أن تدرك أخيرا أن الاضطهاد الذى عانته لم يصل الى درجة الموت..

الى هذا الانتزاع المفاجئ من بين أحضان ا لحياة..

ولكنها ظلت أكثر من عشرين عاما لا تعرف ذلك.. وتحكم على نفسها بالانعزال.. ماذنبها.. وماذنب حسين..

وذنب ملايين الناس المضطهدين فى كل مكان.

ليست مشكلتها بمفردها على أى حال..

وبالفكر والارادة لابد أن يصل الجميع يوما الى طريق الخلاص..

- أدلك رجليك ..؟

من ايه بس بيجيلك التشنج ده ؟.. حطيهم فى الميه السخنة.. استحملى.. استحملى شوية.. أيوه كده. خلاص.. أهى العروق فكت خلاص.. الحمد لله تعرفى افتكرت ايه ..؟

افتكرت زمان لما كنت فى البلد.. ما انت عارفة انى فلاحة.. يا سلام تعرفى أنا باضحك لما حضرتك تقولى انك بتحبى اللون الاخضر.. ولما تفضلى تبصى على الشجرة اللى قدام شباكك..

عايزة تشوفى صحيح الخضرة وجمالها،، شوفيها فى الريف.. فى الفلاحين عندنا.. كنت وأنا صغيرة ما أعدش فى الدار كتير.. دايما أجرى ورا الفراش.. وألعب عند الشجرة والساقية..

حتى لما كنت بأجوع آكل من الغيط.. آه الخير كتير.. وأفضل كده طول النهار.. وبالليل نقعد نحكى الحواديت تحت الفانوس..

تعرفى كنا دايما بنحلم بمصر.. حد فيكم شاف مصر يا ولاد؟ واحدة من العيال تقول ايوه خالى أبو اسماعيل راح مرة مع العمدة..

ونفضل نقول كلام.. الناس هناك نضاف.. الكل لابس جزم فى رجليه.. كل الخلق تعرف القراية والكتابة حتى الستات اللى فى البيوت..

وكنت قول لهم.. تعرفوا يا ولاد.. لما اكبر أنى لازم روح مصر دى.. لازم أقرا كمان ويضحكوا على كثير..

وبعدين يخرج أبويا ويزعق:

- بتعملى ايه يا بت فى نصاص الليالى..

وادخل على طول.. أفضل اكمل فى أحلام وكلام لغاية ما روح فى النوم..

ايه فكرنا بالكلام ده كله.. اى والله.. الميه السخنة وانا بدلك رجليك. بس فرق.. رجليك ناعمة وصغيرة. انما الراجل ده. الله بدلك بقه.. كان جبار. كل ليلة وأنا جايباله الميه كنت أشاور عقلى انى اخبطه بالطشت وأخلى الميه بتغلى تلخبط خلقته.. لكن أرجع وأقول اعقلى يا بت على آخر الزمن تطلعى مجرمة.. وعلى ايه.. آه أصل أنا كنت متجوزة زمان..

اى والله باقول زمان.

أصل فى يوم كنت بالعب قدام الباب مع الولاد.. بصيت لقيت أبويا خارج من الدار ومعاه راجل كبير.. راجل كده شكله زى الوحش.. تصدقى ان انا خفت لما شفته.. وقمت استخبى ورا الشجرة..

لغاية دلوقت انا مش عارفة ليه عملت كده .. لكن أهو اللى حصل .. قلبى كان حاسس ان فيه حاجة حتجرى .. حاجة فظيعة من وش الراجل ده .. وزعق أبويا على:

ـ بت يا وجيدة ..

ودخلت جرى على المقعد على طول .. زى كل ليلة ..

ولكن ابويا قالى:

ـ تعالى هنا .. عندى ليك كلام .. شفت الراجل اللى كان معايا من شوية .

هوه قال كده وانا قلبى راح فى رجلى .. ماله الراجل ده .. ده أنا كنت عايزة أنسى خلقته .. وسمعت أبويا بيقول

ـ من هنا ورايح ما فيش لعب مع الولاد فى الحارة .. انت بقيت كبيرة واللى قدك خلفوا عيال ..

طيب .. ماله الكلام ده .. بالراجل الحلوف ..

وكمل أبويا .. انت حتتجوزيه ..

وما سمعت بقية الكلام .. عرفت المصيبة اللى قلبى حس بيها قبل ما تقع ..

تفتكرى كان عندى كام ؟ ..

تلاتاشر سنة . تصورى .. عيله مش كده والنبى .. كده مره واحدة

ياخـذنى من الحـارة.. من اللعب.. من الجـرى.. على الجـواز على طول.. لكن مين يسمع.. ومين يقدر يقول

- بت فلان مش عايزة تتجوز..

- لازم بايظة.. ماهى طول النهار جاعدة تنط يمة الجرن

أول ليلة رحت فيها بيت الراجل الغريب..

ايوه اضحكى يا ست اضحكى.. اى والله كنت دايما أسميه الغريب.. هوه يبـقـالى ايه.. مين اللى بـاعنى له.. طب أمى وأبويا همـا اللى جـابونى وعشان كده نقول لهم حق فيه.. لكن الراجل ده أعرفه منين عشان يعيش معايا ويشاركنى عيشتى..

كنت باقولك ايه؟..

آه أول ليلة رحت فيها مع الراجل الغريب.. بصيت كده لشكل المقعد الطين.. أقولك الحق.. داره كـانت أحـسن من دارنا.. كـان أغنى منا بكتير.. لكن وايه يعنى؟.

مين اللى قال اننى كنت عايزة غنى ولا زفت..

قعدت أبص لك فى المقعد.. ولقيته دخل وبدأ بغير هدومه.. حسيت أن الراجل ده جزار.. وهو حيقتلنى بعد شويه. فكرت كـده.. وبعدين أخذت ديلى فى أسنانى وجريت..

فضلت أجرى.. أجرى والعفاريت بتتنطط ورايا وقدامى حتى الذرة يا ستى بقى لها أيدين وبتشدنى بيهم..

وأنا أجرى وأصرخ.. لغاية ما وصلت الدار..

طلع أبويا.. وشه كان وحش ساعتها بشكل.. يا حفيظ تهيألى ان منظره بيخوف عن العفاريت..

وقال: جايه ليه يا بت..

قلت له: فى عرضك يا آبا.. أنا عايزه أقعد معاك على طول .. ضربنى بالقلم..

تصدقى بايه وأنا باحكيلك دلوقت ان القلم .. لسه بيرن فى ودنى.. ضربنى بالقلم.. أنا طرشت.. ماشفتش حاجة.. الدنيا ضلمت فى وشى.. وطعم الدم ملا بقى..

- ليه كده يا بويا.. ليه انا عملت ايه.. مش عيب أفضل مع راجل غريب

- الراجل ده يبقى جوزك..

جوزك.. فاهمة يعنى ايه؟.

ويكون فى معلومك من هنا ورايح مالكيش بيت هنا.. احنا مانعرفكيش.

بيتك يعنى بيت جوك..

ليلتها أخذنى أبويا وراح ودانى بنفسه.. كان بيجرجرنى.. وأنا دايخة وقاعدة أزحف وراه.

قال كلام كتير.. مش عارفاه.. ووصلنا..

أبويا قال له أوعى تزعل.. دى صغيرة ومش عارفة حاجة.. وعليك انت تربيها..

وتكومت فى الركن..

لكن الغريب كانت عينه بتطق شرار.. قعد يبص لى شويه كتير.

لو كنت أقدر أصرخ بس..

كنت تعبانة .. تعبانة .. لدرجة أى قلت أحسن لو يموتونى دلوقت واستريح..

وقام.. فضل يروح ويجى قصادى.. وبعدين فجأة كده راح ضاربنى برجله..

وقال: بتهربى يابنت الـ..

ده أنا دافع فيك كتير.. وانت زى القشة ماتساويش ثلاثة مليم.. الساعة دى أنا ماحسبتش ان الضربة وجعتنى.. حسيت بحاجة أكبر من الضرب..

كده يا ابا بتبيعنى لراجل كبير.. راجل متوحش زى ده.. وتسيبنى مادام قبضت التمن..

بطلت عياط.. وسكت خالص.. وفضلت مرميه فى الركن بعد شوية سمعت خبط على باب الأوضة.. أمه وأخته..

- ايه يا أخويا اسم الله على حسك..

- زعلان

- آجى كتفها لك..

وغمضت عينى.. وبعد كده ماعرفتيش جرى ايه.. لغاية اللحظة دى وحياتك ان أنا ما أعرفش ايه اللى حصل بالضبط.. ومش عايزه أعرف كمان.

تفتكرى ايه اللى حصل بعد كده؟.

هربت.. سبت الدنيا باللى فيها وهربت.. جيت هنا على مصر.. وفضلت لغاية ما اشتغلت فى البيت.

خدامه؟. ومالة أيوه خدامه.. لكن بشرفى.. مابعتش نفسى.. وباكل لقمتى بعرق جبينى..

أيوه وعرفت كتير.. حاجات كان لا يمكن أعرفها وأنا هناك فى المقعد الطين.. الراجل الغريب كان عايز يسد شباك القاعة.. عايز يختمه بالطين.. يمنع عنى حتى الشمس والهوا..

ايه الخوف على.. بالعكس لو أنا كنت وحشه.. كنت رضيت بالجوازه دى..

هى دى اللى حرام..

أنا متعلمتش صحيح.. لكن حسيت كده.. وطبعا ده اللى صح..

مضبوط عليك نور.. ياما حرام يعملوه حلال.. والناس عارفه الغلط ومش راضية تكلم..

لكن لأ..

آه فتك بالحكاية.

لا أبدا.. ما أنا بعدها الراجل طلقنى.. أصله راح لابويا يطلب فلوسه اتخانق معاه.. وقعوا فى بعض.. وراح حالف اليمين..

أبويا قعد شويه وبعدين مات..

بعدها أنا عرفت الاخبار دى.. رحت البلد ليلة أبويا مامات. لقيت لمه وهيصه والستات قاعدة تصوت وتنعى..

شافونى.. قالوا لى: يا أختى أبوك مات بحسرتك..

- كده تعملى فى أبوك ياصنايا..

وهمست ولية عجوزة..

صوتى على بوك لا الناس تقول فرحانة فيه..

وسبتهم قاعدين فى الحوش ودخلت المقعد.. لقيت أختى الصغيرة متكومة فى الركن وبتترعش من الخوف..

شلتها وخرجت.. خطيت من وسطهم.. الولية العجوزه كان بتقول

- شوفوا يا ختى البت اللى تندب فى عينها رصاصة.. ولا دمعة على أبوها..

رديت عليها وأنا عا الباب

- مش مهم الميت.. المهم الحى دلوقت..

حضنت أختى وجيت.

آه اختى فى مدرسة داخلية يا روح أزورها كل جمعه.. عايزه أختى تبقى حاجة تانية..

طبعا التعليم.. يخلق الواحده.. تتعلم وتشتغل بمكسبها تبقى ست روحها.. ماحدش يقدر يتحكم فيها..

لما تحب تتجوز تبقى تختار راجل.. وتبقى مش مذلولة ليه لأنه بياكلها..

تحبى تعرفى حاجة؟.

قولى على اللى تقوليه.. لكن ده رأيى..

أنا بازعل من البنت اللى بتسيب التعليم وتروح تتجوز.. وتقعد فى البيت..

يوم ست ليلى.. بقيت أعيط فى فرحها.. كده سنة ثالثة طب.. وتروح تجوز وتقعد فى العزبة.. يا خسارة التعليم.. يا خسارة الفرصة اللى اتحرمت منها واحده زيى شوفى يا ست.. طول ما الواحدة مش بتاكل نفسها.. يمكن الراجل يذلها.. يحس انه مشتريها..

آه صحيح أنا حياتى دلوقت مش زى ما أنا عاوزه.. صحيح ان أبلتك نعيمة موريانى الغلب..

لكن فيه فرق..

ايه يعنى لما تكون ست نعيمة دى قاسية ولا ظالمة.. لكن ان طلعت ولا نزلت أدينى زى زيها.. بتشتغل وأنا بشتغل مش هيه الى بتاكلنى.. مش مالكه حياتى فى ايديها.. أنا مش ملكها..

فيه فرق كبير فى العيشتين.. شوفتى ازاى..

تصدقى انى ساعات أبقى نفسى أصرخ بصوت عالى..

أقول لها تعالى مكانى هنا يا ست نعيمة.. انتى كمان عاوزه تعملى زى الراجل الغـريب.. فـاهمـه ان الكون مـايمشـيش اذا كنت مش موجوده..

لكن احنا شباب.. وانت خلاص يلا حسن الختام.. حتفضلى قد ايه.. كاتمه على نفسنا سنة.. سنتين.. عشرة لكن الدنيا بتتغير.. ومين اللى يقدر يقف فى وش الريح؟

دايما تحرج علينا مانلبش غير المرايل الزرق اللى تغم.. ليه عيب تلبسوا فساتين.. وعيب تلبسوا بلاطى بيض.. مافيش غير المرايل الزرق.. ويكون أحسن لو كانوا وسخين

بتتغاظ منى والنبى يا ست لما مريلتى بتكون نظيفة ومكوية.. أصل أنا باغسلها كل ليلة وأكويها الصبح..

تفضل تبص لى وتقول لى:

انت قاعدة طول النهار مالكيش لزوم..

انت.. انت..

لكن هيه لو كانت عاقله.. مش كانت تنبسط لما نبقى نضاف وكويسيين ست هيام كانت بتضحك وتقول

- أصلها بتغير منك يا عبيطة.. جسمك حلو..

ما أخبيش عليك يا ست أنا أتغريت..

يبقى فى أيدى القرش.. وأحلف لأروح لأحسن خياط فى الدنيا.. وأعمل فساتين.. ويعدين أفتكر أختى.. أفتكران ورانا لسه مشوار طويل.. أقول فلوسى تروح فى حاجة أهم..

لكن يوم مالبست الفستان الأبيض بتاع ست هيام.. الله.. انت شوفتينى فيه.. شوفى أقول لك الحق.. الواحدة تفضل طول عمرها تحلم بالفستان الابيض ده..

وأنا برضه حا ألبسه يوم فرحى بشعبان..

شعبان الجزمجى.. هو كان القلب الحنين اللى خلانى أقعد وأصبر كتير.. كلامه حلو.. وطبعه حلو.. وتقيل.. انا كنت فاكره انى مش حاأقول تانى يا جواز.. لكن وليه.. مادام عجبته وعجبنى وهو عارف أصلى ايه.. وأنا عارفة عنه كل شىء..

ليه مانبقاش اتنين..

وحياتك يا ست لا يوم اتخانقنا.. ولا يوم زعلنا من بعض.. ولا كل الكلام الفارغ اللى الواحد بيسمعه عن الحب والخصام هوه احنا فاضيين.. هوه من ناحية وانا من ناحية.. العيشة تبقى كويسه.. دايما حسن الجناينى يقول لى يا بت ارضى بى.. عيشتك تبقى كويسه.. منين بقى تتصلح ولا تبقى أحسن.. عشان حسن الجناينى فاهم انه موظف وبياخد ماهيه أول الشهر..

طبعا غير البقشيش.. آه هوه شغلته جناينى فى الاصل.. لكن بقى دلوقتى ماحدش عارف هوه ايه.. لبس بدله ويقعد يقطف الورد ويحطه فى الزهريات.. ويلمع الارضية..

عـايزة .كل مـا يقـابلنى .. يقـول هوه انت غـاوية فـقـر .. شـعـبـان الجزمجى عاجبك قوى .. مش عايزه افندى قد الدنيا ..

آل أفندى .. ده أنا ضفر شعبان برقبته .. شعبان عمره ما يمد ايده ولا يتلزق فى الناس زيه ..

أنا بكرهه .. ونفسى أخزق عنيه .. أصل بصته وحشة قوى .. دايما ألم هدومى على كل ما يبص لى .

حاطط روحه فى كفه واحدة قدام شعبان . كان غيره أشطر .. طب مـاأنت عـارفـه ان سى على جـارنا كـانت طلعت فى مـخـه كـام يوم يشـاورلى .. تلقـيـه كـان فـاهم انى خـلاص هـااركع على رجلى مـادام اتنازل وبص لى .. كـان يقـول سـاعـات فى التليـفـون .. انت احلى من بنات كتير .. انت جوهرة فى الطين .. أنا اكتشفتك وتبقى أحسن من الكل .. جوهرة آل وطين .. طين لما يسد حلقه ..

مش كل الطير اللى يتـاكل لحمه .. وأنا يهـمنى انه أفندى ولا بدلته بتلمع .. لكن فين .. ما كل واحدة بيقول لها كلام اشكال وألوان ..

فـيه اسـهل من الكلام .. وكـلام رخص التـراب .. لكن المسكينة اللى بتلعب بعقلها حلاوة وتصدق من غير مـا تحس ولا تقول يا بت رايحة على فين . فـاكرة ايام القنال .. سـاعـة مـا اولاد الجـامـعـة راحـوا يـحـاربوا الانجليز هناك .. شباب زى الورد .. سابوا اهاليهم ومذاكرتهم وبيوتهم وراحوا يموتوا ..

وبعدين ايه اللى حصل.. شعبان اتطوع كمان.. أيامها ماعرفتش عينى النوم.. كنت أعيط وخايفة عليه.. لكن أقول لروحى يا بت تعيطى على ايه ولا ايه..

وهو يعنى وحده.. اللى يجرى على الكل يجرى عليه.. وسط الهم والبكا.. كنت حاسه بفرحه.. بفرحه لانه مايقلش حاجة عن شباب الجامعة.. هوه زى الدكتور عادل خطيب سعاد..

أنا وجيدة وخطيبى شعبان..

وشعبان راح يحارب..

وعادل راح يحارب..

يبقى ايه الفرق.. ويبقى يعلى فى نظرى أد ايه.. مش أفندى هايف قاعد طول وقته يشاغل فى مخاليق الله تصورى الواحد يبقى له بيت.. بيت صغير وفيه عيل.. عيل أربيه.. وأخليه يشوف حاجات كتير كان نفسى أعرفها وأتعلمها وأنا صغيرة..

وكمان فيه اختى.. أختى لازم لها بيت تكبر فيه.. الناس تبقى حواليها وتقول شوفوا أخت وجيدة..

شوفوا وجيدة عملت فى اختها ايه..

ولا ابن وجيدة بقى ازاى..

أحلام يا ستى احلام.. انما لازم تحصل..

ايه المانع.. مادام عايشين وبنكافح..

قلبنا طيب ومخلص..

وانت تتخرجى وتبقى كبيرة.. ومعروفة.. وأنا احكى لابنى وأختى وشعبان.. فاكرين الست.. كانت صحبتى.. كانت معايا فى البيت..

برضه ساعتها باحس أنى عملت شىء..

أنا أحسن من ابله نعيمة لأنى كنت صاحبتك.. وكنت بأخدمك وأساعدك أن تبقى حاجة كبيرة قوى..

وانت طبعا تفتكرينى.. ومين عارف يمكن تعلمى اولادى.

يا خبر ايه ده.. الجرس..

جرس العشا بيدق يا ست ولا أحنا واخدين بالنا..

الميه بردت خلاص..

لكن رجليك كويسيين..

أنا اتكلمت كثير.. اخذت وقتك.. أما الحق أنزل بسرعه لحسن أسمع لى كلمتين.

«هيا نغنى يا فتيات»

جاءت غريبة دعوة الغناء

- كمن أخذن على غرة واصبحن فى غمرة وعدنا من الخائفين - أنقطع التيار الكهربائى فجأة.. وعم البيت الظلام.. وتراقصت المخاوف والأشباح حول الأشجار..

حدث هرج ومرج داخل «قلعة البنات».. سرت فى الجوصيحات.. أنات حسرة وتنهدات - والامتحان على الأبواب»

«هيا نمرح ونغنى»

تريد لنا البهجة فى الظلام - رغم حزنها المقيم - تود أن تزيح عنا الرهبة والقلق.. تجعلنا نناجى الحلم بصوت مرتفع ونتصل بأسباب الفرح والغناء

- ماذا يجدى البكاء؟ - الشكوى والانين والإشفاق على النفس.. يضيع الوقت سدى.. يتسرب بين أيدينا.. وتتبدد ثروة اللحظات المفعمة بالحياة.. تنتثر هباء»

- بالغناء يمكن أن نحسن فى الاسلوب والاداء - «كونوا على استعداد دائماء

مدبرة البيت لها روح بحار،، مثل المتصوفة الاتقياء والرهبان الشجعان. ترى أن نكون على استعداد للمواجهة.. نجعل انفسنا متاحين للنور والأنواء. تكون لدينا المبادرة

.. نتصرف بحزم ولين واتساق تثرى الروح بما نفقد من متاع - نقول: إذا استسلمنا للقلق والاضطراب.. تخذل أنفسنا وعندما يعود النور تكون العتمة نفذت إلينا وأصابنا الوهن والانكسار.

تعرف ثقل الاحزان.. مرارة الفقد وحدة الفراق اعرف قصتها.. أول قصة تروى لنا عند دخول بيت الطالبات.. مات حبيبها فى الحرب.. أرادت الانسحاب من الحيا ة.. تدخل الدير.. وتواصل الخدمة فى مملكة الله.

« دعونا ننصت للموسيقى داخلناء

نشحن تلك الجذوة المتقدة بالاعماق. نتصل بنبع النور.. نفتح عيون القلب ونستقر فى الصمت العميق، جوقة صغيرة فقط تستعذ للنشيد والغناء

(لها روح بحار وحس راهبة)

رات ان ترعى فتيات تطلعن إلى العلم والمعرفة، ياتين من كل فج عميق.. من بين أزقة ضيقة وقرى نائية.. من أسر تقاليد جامدة - مهمة تليق بها ويمكن خدمة الرب فى كل مكان.

«لنصلى وندعو لأحبائنا.. من سبقونا فى الرحيل والإقلاع» نرسل رسائل حب وشوق... نبث فى الكون نغمات ود وحنان نعمل لنكون جديرين بحبهم.

«رددن معى أغنية البحر القديمة» - فارس يخب عبر البحار والمحيطات.. وأعيدوا فارسى إلى.. أخذوه منها فى ذروة الربيع والشباب.. صوتها قيثارة السماء يعلو بنا درجات. يشق البحر يطهر من الشرور (أرى حبيبى هناك.. بين المياه والسماء،، من البحر يجىء يلوح كومض الأمل الموعود).

ارتجف مثل عصفور صغير. يشرق صوتى بالدموع.

أواصل التدريب الشاق وانادى على بحارى الجميل.

بيت الطالبات : الطبعة الأولى : ديسمبر ١٩٦١
الكتاب الذهبى ـ العدد الثالث والتسعون
مؤسسة روز اليوسف

الفهرس

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٦٣٧ / ٩٩

I . S . B . N 977 - 01 - 6519 - 0